الفصل الأول

القرية أصل المدينة

عندما نحاول أن نستكشف حقيقة الوضع الحالي للمدينة يجب أن تمد أبصارنا إلى ما وراء الأفق التأريخي لنتبين معالم منشآت أقدم عهداً أو مهمات أكثر بدائية - فمن دون التغلغل بعيداً في أغوار الماضي لن نشعر أنه قد توفر ما يلزمنا من قدرة للوثوب بجرأة في مجاهل المستقبل.

لويس ممفورد

عصور ما قبل التأريخ وأثرها في نشأة وتطور المستقرات البشرية الأولى في العراق القديم (نشأة القرى الزراعية)

عصور ما قبل التأريخ[1]:

هي تلك التي دأب الباحثون على تسميتها بالعصور الحجرية التي قسموها إلى أربعة عصور اعتماداً على طرائق تشكيل الآلات والأدوات التي كان يستخدمها إنسان تلك العصور "حيث كانت معظمها من الحجارة"، وطبقاً لأساليب العيش المتيسرة في كل عصر من تلك العصور التي قسمت أيضاً إلى أدوار وعصور ثانوية متميزة. وقد تزامنت هذه العصور مع تقسيمات جيولوجية[2] تركت هي الأخرى

١- تعتمد الدراسات التاريخية لتحديد وتقسيم عصور ما قبل التأريخ على الدلائل الأثرية والانتربولوجية التي يكشفها الآثاريون بين الحين والآخر. لذا بات مؤكداً أن عصور ما قبل التأريخ عاشها العراق حتى أواخر الألف الرابع ق.م. وفي شمال أفريقيا استمرت حتى مطلع الألف الأول ق.م، وفي شمال أوروبا استمرت حتى القرن الأول ق.م، أما في العالم الجديد فقد ظلت حتى القرن الخامس عشر الميلادي. (عن موسوعة العراق في التأريخ ص 42).

٢- تقسم العصور الجيولوجية إلى خمسة عصور رئيسة هي: عصر الاركيوزيك، وعصر البروثروزيك، وعصر الباليوزيك، وعصر الميوزويك، وآخرها عصر سينوزويك؛ بواقع فترتين هما:

أولاً: الفترة الثلاثية التي تضم 4 حقب هي: الأيوسين التي كانت أرض العراق أثناءها مغطاة ببحر تش، أو لكاسين التي بدأت فيها المنطقة الشمالية من العراق بالظهور، الميوسين التي ظهرت فيها أرض العراق كلياً. البلايوسين التي بدأت فيها الحركات الالتوائية.

ثانياً: الفترة الرباعية التي تضم حقبتين هما: الأولى البلاستوسين، وهي الحقبة التي اشتدّت فيها الحركات الالتوائية، وأخذت الجبال في شمال العراق شكلها الحالي، وتكونت دلتا النهرين، وحدثت العصور الجليدية الأربعة التي توازي فترتها العصر الحجري القديم. أما الحقبة الثانية فهي age of man: التي ظهر فيها الإنسان (للمزيد من الاطلاع يراجع كتاب

William. T.taylop"general biology and edition. India. 1968p.887.

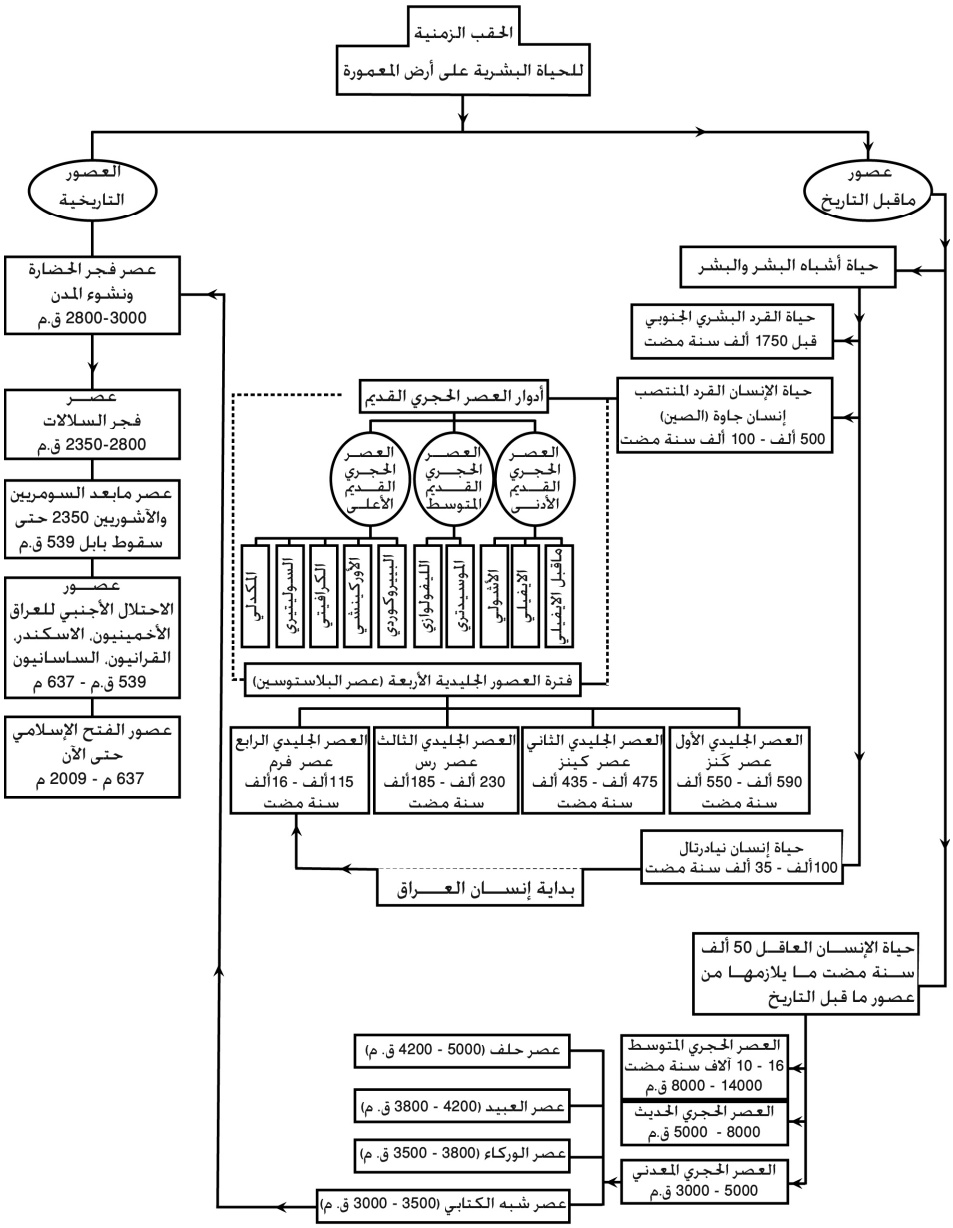

شكل 1: التسلسل التاريخي للحقب الزمنية التي عاشها إنسان العراق

بصماتها على تحديد البيئة الطبيعية للإنسان القديم الذي أكمل أثناءها تطوره الحضري ابتداء من الفرد البشري الذي ظهرت آثاره في جنوب وشرق أفريقيا - كينيا وتنزانيا)، ويعود تأريخه إلى أكثر من 1750000 سنة، مروراً بإنسان جاوه

وإنسان الصين اللذين عاشا قبل نصف مليون سنة[1]. ثم إنسان نياتردال الذي عاش بين 100 ألف 35 ألف سنة خلت، وصولاً إلى الإنسان العاقل homo sabain الذي يقطن المعمورة حالياً، ويعود تأريخه إلى 50 ألف سنة مضت، حيث وجدت آثاره في شمال العراق على الرغم من أن إنسان نياتردال كان له وجود قبل ذلك أيضاً (انظر شكل 1).

أولاً: العصر الحجري القديم (الباليوليتي 60000-16000)ق.م، وظاهرة الاستيطان في الكهوف والملاجئ الصخرية:

يوازي العصر الحجري القديم تقريباً حقبة البلاستوسين[2]. وشمل من الناحية الجيولوجية العصور الجليدية الأربعة المسماة بأسماء الأنهار التي ميزوا على حوافها تلك العصور. وفي بعض المصادر سميت هذه العصور الأربعة بأسماء ومناطق الثلاجات في جبال الألب، حيث وجدت رواسب تلك العصور التي غطت أثناءها الكتل الجليدية أقساماً واسعة من أوراسيا وشمال أمريكا[3]، فيما كانت المناطق الواقعة إلى الشرق والجنوب من البحر المتوسط ومنها العراق تتمتع بأمطار غزيرة وفرت أحوالاً مناخية تناسب حياة الإنسان والحيوانات البرية الكبيرة والمتوحشة، إضافة إلى أنواع أخرى من الحيوانات التي كانت تشكل صيداً وفيراً لسكان الكهوف[4]. ورغم حقب الدفء والجفاف النسبي الذي تخلل تلك العصور التي أثرت في حياة الإنسان والكائنات الحية، فقد مكّنت الدلائل العديدة[5] من الكشف عنها في بقاع مختلفة من العالم. إن حياة الإنسان (أو حياة أشباه البشر) في تلك العصور كان

١- موسوعة (العراق في التأريخ) إصدار وزارة الثقافة والإعلام بغداد العراق 1983 ص 43.
٢- وهي أكثر عصور طبقات الأرض حداثة، حيث بدأت قبل مليوني سنة تقريباً.
٣- لويد. سيتون (آثار بلاد الرافدين) ترجمة د. سامي سعيد الأحمد. منشورات وزارة الثقافة والإعلام. سلسلة الكتب المترجمة بغداد - العراق 1980 ص 19.
٤- ساكز - د. هاري (عظمة بابل. موجز حضارة بلاد وادي الرافدين) ترجمة. د. عامر لسلمان كلية الآداب. جامعة الموصل 1979 ص 25.
٥- من هذه الدلائل الطرق الجيولوجية الحديثة، ودراسة بقايا عظام الحيوانات التي عثر عليها في الطبقات التي تم التنقيب فيها عن آثار إنسان عصور ما قبل التأريخ، حتى تم أخيراً استخدام الذرة في ضبط أدوار التأريخ القديم عن طريق تحليل المواد العضوية الكاربونية بطريقة الإشعاع الذري الكاربوني c14.

تعتمد على الكهوف والملاجئ الصخرية، لتأويه وتقيه من البرد والحر وخطر الحيوانات المفترسة. وقد تمكن من الحصول على طعامه عن طريق ممارسة الصيد وجمع البذور والجذور النباتية. وكانت الحجارة مادته الأساسية في صنع أدواته البسيطة التي كان يستخدمها لشتى أغراضه، والتي كانت تختلف من عصر إلى آخر، مما سهل على الدارسين والباحثين تحديد أدوار وعصور ما قبل التأريخ؛ لذا أطلق الباحثون عليها اسم العصور الحجرية جراء استخدام الإنسان للحجارة في صنع آلاته وأدواته البسيطة، فيما دأب آخرون على تسميتها بعصور جمع القوت نتيجة أساليب العيش التي كان الإنسان يسلكها. ولكلا التسميتين يطلق الباحثون على تلك العصور (عصور التوحش)[1]، لما توحيه تلك التسمية من معان للبدائية في أوجه الحياة المختلفة. ولم تختلف معاناة الإنسان في العراق بيئياً واستيطانياً عن معاناته في سائر بقاع العالم، حيث مرت على العراق العصور الحجرية القديمة بكل أدوارها، وأثرت فيه تلك العصور بيئياً مثلما أثرت في تكوينه وخصائصه الطبيعية العصور الجيولوجية من قبل؛ وتغيرت تبعاً لذلك حياته الاقتصادية والاجتماعية والاستيطانية. فمنذ أن ظهرت طلائع الوجود البشري لإنسان وادي الرافدين الذي وجدت بقاياه في المنطقة الجبلية الشمالية والشمالية الشرقية مثلما وجدت في مناطق غرب آسيا كفلسطين والأناضول وباقي مناطق الشرق الأوسط[2]، دلت التنقيبات الأثرية على أنه سلك أيضاً طريق الحياة البدائية التي عكست بشكل جلي علاقة ذلك الإنسان ببيئته التي تتضح عن طريق تواجد إنسان العراق لأول مرة في تلك المناطق مختاراً الكهوف والملاجئ الصخرية مأوى له، ومن الصيد والتقاط البذور وسيلة للعيش، مما يدل على استجابة ذلك الإنسان للعناصر البيئية التي سخرتها العوامل الطبيعية، فما كان من

١- الأحمد. د. سامي سعيد (السومريين وتراثهم الحضاري) من منشورات الجمعية التأريخية العراقية بغداد العراق 1980 ص 19.
٢- لويد. مصدر سابق. ص 26.

إرادته إلا أن حول تلك العناصر إلى حالة للعيش اتصفت بها حياته خلال الآلاف الكثيرة من السنين الممتدة عبر ذلك العصر.

وقد أمكن تتبع حياة الإنسان العراقي في العصر الحجري القديم في تلك المناطق. وعلى الرغم من محدودية الأدلة عن هذه المرحلة لحصر التنقيبات الأثرية في بعض المواقع في المنطقة الجبلية المرتفعة، إلا أنها أعطت دليلاً كافياً وثابتاً عن وجود الإنسان العراقي القديم فيها[١]، إذ كشفت عن وجود هياكل عظمية كالتي عثر عليها في كهوف فلسطين، والتي تحمل الصفات الجسمية نفسها لإنسان نياندرتال الذي يعتقد بانحدار الإنسان العاقل عنه بحكم العلاقة التطورية بينهما[٢]، مما يعني أن أرض العراق شهدت تواجد الإنسان القديم عليها إبان العصور الحجرية القديمة، مما يدفع إلى القول أن إنسان العراق عاش تلك العصور وما لازمها من عصور جليدية طبقاً إلى الفترة التي عاشها، والتي أمكن تحديد فترتها بالعصر الحجري القديم الأوسط، وبالتحديد بين (60-35 ألف سنة مضت)[٣]، حيث أثبتت التنقيبات الأثرية التي جرت بين عامي 951-966[٤] أن ما عثر عليه من آلات حجرية وحصوية للقطع والقرم وفؤوس حجرية يدوية وشظايا ومقاشط في موقع برده بلكا (2كم شمال شرق بلدة جمجمال) ينسب إلى الحضارة الموشيرية (من العصر الحجري القديم الأدنى)، رغم أن تلك الآلات تعود إلى الدور الأشولي المتأخر. ومما كان يعزز التفكير بهذا الاتجاه العثور على فأس أشولي في إسكي كلك التي تقع في برده بلكا على الضفة اليمنى من الزاب الكبير. وفي تلك المناطق عثر على بقايا عظام حيوانات الصيد الكبيرة من فيلة وثيران وأغنام وماعز برية. وإن ما عثر عليه من آلات حجرية حصوية عام 1966 في منطقة القصير (على بعد 2كم جنوب غرب قلعة قصر من بادية السماوة) يعود كذلك إلى العصر الحجري القديم الأوسط[٥]. بينما دلت المكتشفات الأثرية التي كانت قد بدأت عام 1928[٦] في شمال العراق على أن الطبقات السفلى من كهف هزار مرد (18كم جنوب غرب السليمانية) حوت على آلات وأسلحة مدببة النهاية وقاشطات، جميعها من حجر الصوان، تعود فعلاً إلى الدور الأول (من العصر الحجري القديم الأوسط). وقد صنعها إنسان العراق المنقرض من نوع نياندرتال، الذي أكدت وجوده فعلاً الهياكل العظمية الآدمية التي عثر عليها بين عامي

١- ساكز. مصدر سابق. ص 25.
٢- موسوعة العراق في التأريخ. مصدر سابق. ص 50.
٣- ساكز. مصدر سابق. ص 25.
٤- جرت تلك التنقيبات من قبل بعثة المؤسسة العامة للآثار والتراث وفي عام 1958 أجرت فيه بعثة أمريكية من جامعة شيكاغو تنقيباتها لمدة قصيرة.
٥- موسوعة العراق في التأريخ. مصدر سابق. ص 50.
٦- جرت تلك التنقيبات من قبل الأثرية الأميركية دوروثي جاروود doroth a.egarod، وهي نفسها التي مارست التنقيبات في فلسطين لعصور ما قبل التأريخ عن جورج رو. ص 66.

1953-1957[1] في كهف شانيدر الذي اختير من بين مجموعة كبيرة من الكهوف في الواجهة الجنوبية لسلسلة جبال برادوست (في محافظة أربيل - شمال مدينة راوندوز - مطل على نهر الزاب الأعلى قرب مركز ناحية شانيدر)، حيث أمكن تمييز أربع طبقات أثرية لسكن الإنسان القديم. وأثبتت تلك التنقيبات، بالإضافة إلى دراسات علم الإنسان المقارن "الأنثربولوجيا"، أن تلك الهياكل التي عثر عليها في الطبقة الرابعة "D" تعود لذلك الإنسان، وأن ما عثر عليه من آلات في تلك الطبقة هو موستيرية الدور[2]؛ كما عثر على بقايا عظام حيوانات كالثيران والماعز، مما يدل على الأصول الوحشية للحيوانات التي كان يصطادها إنسان ذلك العصر[3]. كذلك وجدت آثار هذا العصر من مقاشط وآلات حجرية من العصور الموستيرية في كهوف أخرى مثل بابخال وسراندوز (بين شقلاوة وأربيل)، استخرجت منه تلك الآثار عام 1955 في منطقة أبو دبس والرزازة وبحر النجف (في محافظة كربلاء والنجف)[4]. أما العصر الحجري القديم الأعلى فقد وجدت آثار إنسانة في التنقيبات نفسها التي جرت عام 1928 في كهف زرزي "قرب منابع الزاب الأسفل نحو 20 ميلاً شمال غرب السليمانية"، وفي كهف شانيدر (ط 3 "c")[5]؛ حيث دلت تلك الآثار من أدوات وآلات على شكل نصال وأزاميل، أنها ذات طابع محلي، إضافة إلى الأدوات والآلات المصنوعة من حجر الصوان والزجاج البركاني وبعض عظام الحيوانات غير الأليفة، منها ما يعود إلى الدور الأوركيشي، ومعظمها يعود إلى الدور الكرافيتي الذي ترجع فترته إلى 34 ألف سنة مضت[6]. كذلك وجدت آثار هذا العصر في ملجأ صخري آخر اسمه بالي كورا على بعد 20كم شمال شرق قلعة جرمو، وفي مواقع أخرى مثل باراك وحجية بين عقرة والزاب الأعلى وفي باب خال بالقرب من راندوز[7]. إزاء كل هذه المكتشفات والآثار وما رافقها من دراسات أنثربولوجية تأكدت الحقائق التالية عن العصر الحجري القديم كخصائص اقتصادية واجتماعية واستيطانية وصفت حياة إنسان ذلك العصر، وهي:

1- إن أول إنسان حط في أرض العراق كان من نوع نياندرتال الذي اتخذ من الكهوف والملاجئ الصخرية موضعاً لسكنه؛ وإن هذه البداية تعود إلى العصر الحجري القديم الأوسط مثلما هي بداية الحياة في كهوف الصخور بجبل الكرمل

١- أثناء التنقيبات التي قام بها عالم الآثار الأميركي والسلوكي لحساب جامعة مشيكان (عن لويد سيتون - مصدر سابق ص 22).

٢- ساكز. مصدر سابق ص 25.

٣- رو. جورج - "العراق القديم" ترجمة حسين علوان. سلسلة إصدارات وزارة الثقافة والإعلام رقم 127. بغداد - العراق 1984. ص 72.

٤- موسوعة العراق في التأريخ. مصدر سابق ص 51.

٥- أثناء تنقيبات سوليكي منتصف الخمسينيات.

٦- لويد. ستن - مصدر سابق. ص 22-23 وجورج رو. مصدر سابق ص 73.

٧- موسوعة العراق في التأريخ. مصدر سابق ص 51 وجورج رو. مصدر سابق ص 74.

في فلسطين لهذا الجنس البشري نفسه الذي تطور إلى الإنسان العاقل الذي بني أول حضارات العالم التي كان العراق مهداً لها.

2- سلك إنسان العراق القديم عبر حياته البدائية الأولى، الممتدة بين العصر الحجري القديم الأوسط وحتى العصر الحجري الحديث، سلوكاً اعتمد فيه على جمع قوته بواسطة الصيد والقنص والتقاط كل ما يؤكل مما دب أو نبت على الأرض. وبسبب محدودية قدرته وقلة خبرته وتجاربه في صناعة أدواته وآلاته وعدم معرفته بطرائق البناء، فقد اعتمد على الحجر في صناعة تلك الأدوات والآلات بعد أن اتخذ من الكهوف والملاجئ الصخرية مأوى له يسكن فيها مع عائلته وأفراد آخرين ليحمي نفسه من الأعداء والحيوانات المفترسة من جهة، ولمجابهة قساوة الطبيعة المناخية التي كانت سائدة في تلك الفترة بحكم العصور الجليدية وتبدلات المناخ من جهة أخرى.

3- على الرغم من أن معيشة الإنسان الأولى بشكل أسر داخل الكهف الواحد تدل على أول أشكال البناء الاجتماعي، إلا أن نوعاً من التعاون ربما كان يدب بين أفراد الأسر، يتمثل في المشاركة بمهمات صيد الحيوانات وجمع الثمار والحبوب لتوفير الغذاء اللازم من جمع القوت، والتعاون في صنع الأدوات من الحجارة.

ومن المظاهر الاجتماعية الأولى التي تحمل كثيراً من المعاني الروحية وترقى إلى المحاولات الاعتقادية الأولى، ما دلت عليه المكتشفات الأثرية في الطبقات الثرية من الطبقات السفلى لكهف شانبير، المتمثلة ببقايا من الزهور عند جماجم الهياكل العظمية التي تعود لإنسان نياندرتال التي إن لم تكن تشير إلى اعتقادهم لحياة ما بعد الموت[1]، فإنها ربما استخدمت لأغراض طبية وعلاجية[2]. كذلك فإن العثور على هيكل عظمي لرجل كسيح قرب موقد للنار[3] ربما يشير إلى أنهم عندما خرجوا للصيد الجماعي عهدوا إليه بإدامة النار. وفي كل الأحوال فإن تلك الممارسات الاجتماعية تؤكد مساراً متطوراً لحياة الإنسان العراقي القديم عبر تلك العصور، وأنه في طريقه لتحقيق تطورات لاحقة لبني جنسه.

١- أبو الصوف. د. بهنام "موسوعة المدينة والحياة المدنية" مجموعة دراسات في التأريخ العراقي وحضاراته لنخبة من أساتذة التأريخ بغداد. العراق - 1988 ج 1 ص 116.

٢- كما أثبتت ذلك الفحوصات الطبية التي أجريت على الهياكل الآدمية التي عثر عليها في الكهف (شانيدر) أثناء تنقيبات سلوكي، والتي قام بها د.سيتوارت الذي استطاع تشخيص حالة بتر في ذراع أحد الهياكل المصابة بشكل وِلادي، وقد بترت بواسطة نصل صواني خشن(عن جورج رو - ص 172).

٣- المصدر السابق ص 122.

ثانياً: العصر الحجري المتوسط (المسيوليني 16000-10000 سنة مضت)، وظاهرة الاستيطان في المواقع المكشوفة:

ما أن انتهى العصر الحجري القديم الذي أكمل فيه الإنسان تطوره الحيوي، وشهدت نهايته حلول الإنسان العاقل، ولتنتهي معه العصور الجليدية الأربعة ويخيم على المعمورة نوع من الدفء واعتدال المناخ بعد انسحاب آخر عصر جليدي(فيرم) الذي انتهى بحدود 14000ق.م، إذ إن تغير اتجاه رياح أمطار المحيط الأطلسي نحو الشمال[1] نتج عنه نوع من الجفاف النسبي في الشرق الأدنى والأوسط، ونمت أصناف نباتية برية مختلفة من الحنطة والشعير لم تعد تكفي للحيوانات الكبيرة كالفيلة والوعول التي كان يصطادها الإنسان القديم ويتغذى عليها، فبدأ يقلّ عددها وتنقرض، وصار لزاماً على الإنسان في سبيل البقاء أن يحصل على إنتاج قوته، فبدأ بالنزول تدريجياً من المناطق المرتفعة ليستقر في واحات ذوات مياه وفيرة يتمكن فيها من إنبات المحاصيل[2] الحقلية كالحنطة والشعير وباقي الحبوب بما يكفيه وقطعانه من الحيوانات الصغيرة كالماعز والغنم والخنازير والبقر الوحشي التي حلت محل الحيوانات الكبيرة التي بدأت بالاختفاء بسبب استمرار تناقص النباتات البرية الكثيفة؛ ليتحول الإنسان بذلك تدريجياً من جامع للقوت إلى منتج له[3]. وحدثت تغيرات في العلاقات بين الإنسان وبيئته المحيطة تمثلت في ظهور مجالات استيطان في مواقع غير الكهوف والملاجئ التي كانت سمة حياته في العصر الحجري القديم، وأصبح يجوب المناطق المفتوحة عند شواطئ الأنهار ومصباتها وقرب العيون وفي السهول الرملية التي صارت جزءاً من حياته الاستيطانية[4]، حيث لازم تلك المواقع لفترات كانت توازي أشهر الصيف، فيما كان يستمر باستخدام الكهوف في فصل الشتاء لتقيه من قساوة البيئة المناخية من جهة، ولملاءمتها طبيعة الإنسان في المحافظة على القديم من جهة أخرى[5]. لذلك وجدت أكثر المواقع الاستيطانية المكشوفة قريباً من بعض الكهوف، فبالقرب من كهف شانيدر كان الموضع الاستيطاني المكشوف زاوي جمي (على ضفاف الزاب الأعلى وعلى بعد 4كم غرب الكهف) الذي عثر فيه على أدوات زراعية حجرية استعملت للدق والسحق والطحن، ومناجل حجرية صوانية ذات مقابض وسلاسل وحصران، وآلات أخرى مثل تلك التي عثر عليها

١- ساكز. مصدر سابق. ص 26.

٢- تمكن الإنسان لأول مرة من ملاحظة إنبات المحاصيل الحقلية البرية كالحنطة والشعير عبر رؤيته لطبيعة نمو المراعي الطبيعية من جراء انتشار البذور البرية على الأرض الرطبة التي ترويها الأمطار دون حرث، حيث صارت تعطي إنتاجها الحقلي ليكون قوتاً للإنسان والحيوان؛ لذلك عمد إلى التدخل وتحسين عملية إنبات تلك البذور للوصول إلى أول طرائق الزراعة المباشرة (موسوعة المدينة) ص 18.

٣- ساكز. المصدر أعلاه. ص 26.

٤- موسوعة العراق في التأريخ. ص 46.

٥- ساكز. مصدر سابق. ص 27 كذلك موسوعة المدينة ص 117.

في كهف شانيدر الطبقة B-2 وكهف زرزي وبالي كورا التي تبين من اختبار الكاربون C14 أنها تعود إلى 13 ألف سنة مضت[1]. ومثل تلك الآثار عثر عليها في مواضع استيطانية مكشوفة أخرى كموقع نمربك في دهوك وكريم شهر (على بعد 9كم شرق جمجمال)، الذي يعد أثرياً أهم المواقع الاستيطانية المكشوفة التي تعود لذلك العصر، نتيجة ما عثر عليه فيه من آلات حجرية متقنة الصنع وأدوات زراعية تمثلت في المناجل الصوانية المثبتة على مقابضها بالقار، كما عثر على رحى الطحن والهاونات والمدقات التي أن لم تكن قد استخدمت لطحن المنتوجات الزراعية، فعلى الأقل استخدمت لطحن النباتات البرية الملتقطة، حيث لا يمكن الجزم بأن أهل تلك المستوطن مارسوا الزراعة المنتظمة فعلاً لعدم العثور على حبوب القمح والشعير في ذلك المكان، بينما وجدت نسبة قليلة من عظام الحيوانات المدجنة آنذاك كالغزال والماعز البرية، مما يدل على أن الصيد والالتقاط هما حرفة أهل ذلك المستوطن.

ولم يعثر على أيّ دلائل أثرية توحي ببقايا بيوت سكنية، مما يجعل ذلك المستوطن أقرب إلى مخيم يؤوي الصيادين موسمياً[2]. وقد وجدت بقايا لبيوت محفورة في الأرض، ذات جدران مشيدة بالحجارة أرضها مرصوفة بالجص، في مستوطن مكشوف آخر هو ملفعات، الذي يقع على ضفة نهر الخازر شمال طريق أربيل - موصل، وقد حوت آلات وأدوات تشبه ما عثر عليه في موضع كريم شهر، ولكن تبقى آثار البيوت التي شيدت جدرانها من الطين على أسس من الحجارة، والتي عثر عليها في موضع زاوي حجي[3] هي أقدم المنازل التي شيدها إنسان العصر الحجري المتوسط، والذي يمكن وصفه بأنه عصر انتقالي، ليس على صعيد الظاهرة الاستيطانية المتمثلة بالمواقع المكشوفة والأكواخ الدائرية سكنياً فحسب، بل وعلى صعيد ظاهرة ممارسة الصيد والالتقاط تارة، والرعي والزراعة تارة أخرى ولو بشكل يسير، إذ من المؤكد أن من يلتزم البقاء قرب عائلته في مثل تلك الظروف البيئية والسكنية لابد أن يمارس نشاطاً موضعياً يوفر له سبل العيش، فكان صيد الأليف والقرب من الحيوانات والتقاط ما نبت أو زرع هو السبيل لذلك في تلك المواضع.

١- موسوعة العراق في التأريخ ص 52 وجورج رو - مصدر سابق. ص 77.
٢- لويد مصدر سابق ص 34.
٣- موسوعة العراق في التاريخ ص 53.

ثالثاً: العصر الحجري الحديث (النيوليتي 8000-5000ق.م)، وظاهرة الاستيطان في القرى الزراعية (عصر الثورة الزراعية):

إذا كان العصر الحجري المتوسط قد شكل عصراً انتقالياً من العصر الحجري القديم على صعيد الظاهرة الاستيطانية والظاهرة الاقتصادية بحكم انتقال الإنسان من الكهف إلى المستوطن المكشوف سكناً، ومن الصيد والالتقاط إلى الرعي والزراعة قوتاً، فإن العصر الحجري الحديث المبتدئ قبل 10 آلاف سنة مضت (أي 8000ق.م) امتاز بظهور القرى الزراعية التي اتخذها الإنسان القديم موضعاً لسكنه وتجمعه البشري على أساس اقتصادي قوامه ممارسة الزراعة بشكل واضح في حقول ومزارع تلك القرى التي انتشرت في بطون الوديان الممتدة بين السلاسل الجبلية والأراضي المتموجة فوق أو قرب المواضع الاستيطانية المكشوفة التي انحدر إليها ذلك الإنسان في فترات سابقة قرب المنطقة الجبلية وكهوفها عند مصبات الأنهار والجداول أو قرب الينابيع والعيون، مما يجعل التدرج لظاهرة الاستيطان منطقياً في تلك المنطقة: ابتداءً من الكهف ثم الموضع المكشوف وأخيراً القرية الزراعية. وفي المنطقة الشمالية من العراق نفسها، التي استمرت تنعم بمناخ وأمطار ملائمة لإقامة الزراعة الديمية كأساس اقتصادي لتلك المواقع الاستيطانية، لذلك صارت تلك المنطقة وعبر آلاف السنين من العصر الحجري الحديث تعج بتلك المستوطنات الزراعية التي أظهرت التنقيبات الأثرية أنها وعلى الرغم من التنوع الحضاري الذي اعتراها (المتمثل في اختلاف التوازن بين الزراعة وتربية الحيوانات وتعدد أشكال الآلات والمادة التي تصنع منها الأواني التي كانت حجرية ثم صارت فخارية ذات خصائص زخرفية مميزة، وكذلك الاختلاف في شكل التمائم والدمى ودفن الموتى كطقوس دينية وروحية، وفي بناء وتخطيط البيوت) إلا أن (تلك القرى) خضعت لمجموعة الخصائص يمكن تلخيصها بالآتي:

1- الخصائص الاقتصادية للقرى الزراعية:

كأولى لَبنات بناء المستقرات البشرية الدائمة

ارتبط تأسيس القرى الزراعية ومنذ البداية ارتباطاً تاماً بالنمط الاقتصادي الذي أحدثته ممارسة النشاط الزراعي الرعوي، وهيأته الظروف الطبيعية والإقليمية التي ساعدت على تبني ذلك النشاط، وإن كانت بدائية تعود إلى العصر السابق، إلا أن الممارسة المطلقة لهذا النشاط كانت في العصر الحجري الحديث، إذ حولت الصفة الاقتصادية لإنسان ذلك العصر، فجعلته منتجاً للقوت بعد أن كان جامعاً له، لذا ذهب البعض إلى أن ذلك التغير هو أولى الثورات الاقتصادية في

الحياة البشرية، وأسموها بالثورة الزراعية[1] التي انتابت الحياة القروية منذ نشأتها.

وكان تطور معالمها الاقتصادية وتغيرات السلوك الاجتماعي والعمراني المرادف لها سبباً في تعدد الأنماط القروية "التي دلت عليها الآثار الفخارية" التي انتشرت في أرجاء المنطقة الشمالية وإلى الجنوب منها عند الأرض المتموجة لاحقاً. فكانت قرية جرمو التي يعود تأريخها إلى ما قبل الألف السابع هي أولى القرى الزراعية التي حملت خصائص المستقرات البشرية الدائمة. وقد شكلت الزراعة الديمية والرعي أساساً اقتصادياً لها منذ نشأتها، حيث عثر على بذور أنواع من الحبوب كالحنطة والشعير البري، وقد دعم إنتاج هذين المحصولين بوجود المجارش والرحى وأدوات وأواني التذرية التي استخدمت لإنتاج وصنع الخبز. كذلك وجدت بقايا عظام لأصناف من الحيوانات المدجنة كالماعز والكلاب، كما وجدت بقايا ومخلفات أصناف أخرى من الحيوانات ذات الأصل البري كالبقر والثيران والدببة والخنازير والغزال الوحشي التي كان قد ألفها الإنسان لاحقاً[2]. وعلى هذا الغرار وما لحقه من تطور كانت القرى الأخرى مثل حسونة وقرى تلال بارم تبة وأم الدباغية وقرى شمشارة ومطارة وغيرها. ولكن تبقى قرية حسونة تمثل أول مسارات التطور الاقتصادي والعمراني التي تكاملت صورها في قرية تل الصوان عند الألف السادس (كما سنرى لاحقاً)[3]. وعلى الرغم مما أصاب تلك القرى من تطور إلا أنها ظلت قرى صغيرة لا تتجاوز مساحتها 1.5-7 فدان، ممثلة بالمواضع السكنية المحدودة وما جاورها من مساحات للأراضي الزراعية التي كانت على شكل حقول زراعية صغيرة مخصص كل منها لأسرة واحدة كانت تقوم بزراعتها بالمحاصيل الحقلية من حنطة وشعير وحبوب أخرى عرفت زراعتها عن أصولها البرية بالتدريج، وكان ناتج تلك

١- لا يقصد بالثورة هنا حركة عنف، بل قمة التحول المتقدم في البناء الاقتصادي ونظام الجماعات الاجتماعي (لويد - مصدر سابق - ص 45).

٢- ساكز. مصدر سابق ص 22.

٣- ساكز، مصدر سابق ص 3-32.

الحقول لا يكفي لسد حاجة تلك الأسر التي كانت تقوم بنفسها أو بالتعاون مع أسر أخرى في تنظيم حقولها وزراعتها وصناعة ما يلزمها من عدد وأدوات منزلية وزراعية وجدت آثارها على شكل مناجل موانية ورحى ومجارش ومدقات وهاونات وملاعق وأوانٍ حجرية وغيرها من الآلات والأدوات المنزلية والزراعية. وقد لوحظ في تلك الحقول خلوها من البستنة والأشجار المثمرة التي لم يعثر على بقاياها ولو بشكل متفحم، لأنها لم تعرف إلا في وقت متأخر[1].

إزاء ذلك الوضع الاقتصادي لقرى العصر الحجري الحديث يمكن تلخيص أهم معالمه بما يلي:

أ- نشوء الملكية الفردية المتمثلة في حصة كل عائلة من الحقول الزراعية وحيواناتها الداجنة في المراعي وملكيتها لأدوات الإنتاج الخاصة بها.

ب- اتصاف النظام الاقتصادي للقرية بالاكتفاء الذاتي، حيث إن كل عائلة كانت تقوم بإنتاج قوتها بنفسها عن طريق الزراعة وتربية الحيوانات في حقولها الخاصة، وتصنيع أدواتها البدائية المحدودة مما يتوفر من مواد أولية.

وكانت النتيجة المترتبة على اقتصاد قرى العصر الحجري الحديث أن صارت كل منها وحدة اقتصادية مكتفية ذاتياً، وبالتالي لم يعد لدى الفلاح حافز مادي كي ينتج أكثر مما يحتاج إليه لإعالة أسرته وتهيئة بذور الموسم القادم، لذلك لم يكن هناك فائض في الإنتاج الزراعي يشجع على المتاجرة وتحرك أفراد المجتمعات القروية نحو بعضها[2].

وإن لم يكن ذلك متبعاً في كل القرى، حيث عثر في قبور بعض قرى هذا العصر على مواد استوردت من مسافات بعيدة كالأصداف والمحار المتأتية من الخليج العربي لصناعة العقود والخرز، والأحجار البركانية والصلبة، وأنواع أحجار الصوان والحجارة الخضراء وحجر الابسيدين المستوردة من بلاد الأناضول[3].

١- الدباغ، د. تقي - موسوعة المدنية والحياة المدنية. مصدر سابق. ص 20-22.
٢- موسوعة المدينة والحياة المدنية - مصدر سابق ص 22 - كذلك ساكز مصدر سابق ص 30.
٣- المصدر السابق ص 23.

ج- على الرغم من عدم ظهور مبدأ التخصص في العمل عبر أنشطة ذلك العصر، إلا أن علماء الإنسان الأنثروبولوجيين يفترضون وجود تخصص ضيق ومحدود في القرية الأزلية قياساً بمستوى النشاطات في المجتمعات السابقة[1]، تمثل في القيام بمهمات الزراعة وتنظيم حقولها، ورعي الحيوانات وصيد بعضها وتصنيع جلودها وممارسة الغزل والنسيج بشكل محدود، والقيام بصنع الآلات والأدوات الحجرية قبل معرفة صناعة الفخار، كذلك عُدَّ درس وتذرية واستخراج البذور نوعاً من التخصص إضافة إلى طحن الحبوب. وقد سبق كل ذلك معرفة فن البناء ومعالجة الطين لعمل الطوف، وإمكانية بناء وتقطيع المنازل واستخدام فضاءاتها لشتى الاستعمالات؛ حتى إذا ما عرف الفخار صارت صناعته أول ممارسة فعالة ومتخصصة وذلك بعد إدراك أهمية ومحاسن الصناعة الفخارية المزخرفة والمنقوشة، التي صارت أهميتها في علم الآثار والتنقيب لا تقتصر على ذكر أهميتها ومحاسنها من الناحية العملية والجمالية، بل ومساعدتهم على تتبع الأطوار الحضارية التي يعود لها كل دور.

2- القرى الزراعية وأثرها في الحياة الاجتماعية وظهور الأفكار والمعتقدات الدينية:

ظهرت الملامح الاجتماعية والتنظيم الاجتماعي في مسيرة الإنسان العراقي القديم في سلوكه الأول داخل الكهف أو الملجأ، ممثلاً في معيشته الأولى بشكل أسر يدب بين أفرادها التعاون في قضاء حاجياتهم اليومية من جهة، وإشاعة نوع من التعاون بين الأسر الأخرى تمثل في المشاركة بمهمات صيد الحيوانات الوحشية وجمع الثمار والحبوب لتوفير الغذاء اللازم لتلك الأسر، حيث كان الإنسان يعيش على جمع القوت وتصنيع أدواته بنفسه. وعبر ذلك السلوك البدائي لم تخل حياته الاجتماعية من بعض المعاني الروحية التي ترقى إلى أولى المحاولات الاعتقادية والدينية التي دلت عليها المكتشفات الأثرية التي عثر عليها في الطبقات السفلى لكهف شانيدر، ممثلة بالمحاولات

١- للاطلاع على مزيد من المعرفة عن الفخار وصناعته تراجع موسوعة حضارة العراق ج 3 ص 7-22 أو ما كتبه د. فرج بصمه جي - بحث في الفخار صناعته وأنواعه في العراق القديم - مجلة سومر - 42 ج 1 ك 2 1948 ص 15-56.

العلاجية أو اعتقادات لما بعد الموت (كما أسلفنا)، وغيرها من مزايا العناية بالأفراد والتعاون الجماعي التي أخذت مفاهيم أدق وأشمل أمكن إدراكها وتلمسها عبر حياة المواقع المكشوفة التي تمثلت في طريقة تشكيل التجمعات البشرية الأولى ونهجها الاقتصادي المعبر عن طبيعتها الاجتماعية المتقاربة والمتعاونة. حتى إذا ما حل العصر الحجري الحديث عم الاستقرار الدائم معظم أرجاء المنطقة الشمالية الشرقية من العراق عبر عشرات القرى الزراعية التي أضحت تجمعاتها السكانية تشكل بالأساس وحدات اجتماعية بنيت على أساس صلة القربى بين الأُسَر المتجمعة في تلك المستقرات التي شكل اتساعها البناء الأول للنظام القبلي الذي استمر لفترات طويلة من عمر القرى الزراعية كأساس في بنائها الاجتماعي[1]. مما كان يدفع تلك التشكيلات الاجتماعية للتعاون في مراعيها ومشروعاتها المشتركة ونظام دفاعها عن نفسها وطريقة استغلالها لحقولها المعتمدة على الأمطار الديمية. وفي ظل ذلك البناء الاجتماعي كانت الأسرة هي الأساس ابتداءً من مساهمتها في بناء التشكيلات الاجتماعية، وانتهاءً بممارستها الاقتصادية والعمرانية التي أعطت تلك القرى كياناتها كوحدات اجتماعية واقتصادية وعمرانية رغم اعتمادها الكلي على سخاء الطبيعة وكرمها اللا محدود الذي يأتي تباعاً كلما زاد تفاعل الإنسان مع بيئته، مما أشاع تنوعاً في تلك القرى وفي حضارتها وسلوكها الاجتماعي وعطائها الاقتصادي والعمراني تبعاً لدرجة تكيفها مع عوامل الطبيعة والبيئة ودرجة انفتاحها على المجتمعات القروية الأخرى واكتسابها للخبرات المحلية أو المحيطة[2]، حتى تأكد عبر نماذج عديدة من قرى العصر الحجري الحديث أن للعوامل الإقليمية والطبيعية وأهمها كثرة الأمطار الساقطة في تلك المنطقة الأثر الكبير في قيام أدوار متفاوتة من الحضارات العراقية التي شكلت الظاهرة الاقتصادية (الزراعة والرعي) أساس قيام مستوطناتها منذ الألف الثامن، وشجعت على قيام سلوك

١- فرانكفورت. د. هنري. وآخرون "ما قبل الفلسفة" ترجمة جبرا إبراهيم جبرا. دار مكتبة الحياة. فرع بغداد - بيروت 1960 ص 150.

٢- موسوعة المدينة والحياة المدنية، مصدر سابق، ص 23.

اجتماعي وعقائدي تمخض عن تولي المرأة للزعامة الدينية والزراعية. والسبب في ذلك يعود إلى أن انتشار القرى الزراعية في تلك الأراضي التي تعتمد على الزراعة الديمية يعني الاستمرار في زراعة الأرض الصالحة للزراعة لعدة سنوات متتالية، مما جعل أراضي تلك المنطقة تعاني من نقص في الخصوبة. ولما لم يكن أمام إنسان ذلك العصر من وسيلة يزيد بها خصوبة التربة سوى ممارسة الطقوس السحرية[1]، فقد اعتمد عليها، وكان أول هذه الطقوس هو المبدأ السحري الذي ينص على أن "العلل المتشابهة ينتج عنها نتائج متشابهة"، حيث لا ينتج عن الخير إلا الخير، والشر لا ينتج إلا عن الشر، كذلك فالحنطة لا ينتج عن زراعتها إلا بذور الحنطة، ومثلها سائر النباتات والحيوانات التي لا تخلق إلا شبيهاتها[2]. وعلى هذا الأساس اعتقد الإنسان القديم أنه قد اكتشف سر الحياة، فحاول الاستفادة من ذلك السر في تحقيق متطلبات حياته، لذلك اعتقد أنه ما دامت المرأة هي التي تحمل وتلد فهي المسؤولة عن تكاثر البشر، لذلك لو تعاملت هي مع الزرع فسوف تجعله يعطي أكثر مما لو تعامل معه الرجل؛ ولهذا السبب صارت المرأة منذ بداية ظهور الزراعة في حياة الإنسان (عند مطلع الألف الثامن ق.م) هي زعيمة الطقوس الدينية والزراعية وجني المحاصيل. وفضلاً عن هذا فقد اعتقدوا أن المرأة الولود البدينة تعطي إنتاجاً أفضل. ومن هذا الاعتقاد ونظرة الزعامة للمرأة راحوا يقدسونها؛ فعملوا لها الدمى التي سميت بالآلهة الأم "mother goddess"، فكانت تلك الممارسات أولى المعتقدات الدينية التي مارسها الإنسان العراقي القديم. وفعلاً فقد وجدت كثيراً من الدمى النمائم التي تمثل الآلهة الأم في المخلفات الأثرية لقرى العصر الحجري الحديث الأولى واللاحقة مثل جرمو وحسونة وما تلاهما. وكان قسم من تلك الدمى قد عثر عليها بشكل نسوة بدينات إمعاناً بالقدسية التي تحملها المرأة الأم من جهة، وبذوات اللحم (البدينة) من جهة أخرى. "شكل رقم 2".

١- أن الطقوس التي تولدت لدى إنسان ذلك العصر لم تكن لتأتي نتيجة شعوذة، وإنما نشأت نتيجة ملاحظته للطبيعة وتلمسه بوضوح للأشياء، فتولدت مثل تلك الممارسات.

٢- رشيد. د. فوزي "الاستشراق وأثره على الحضارات القديمة - بحث مقبول للنشر في مجلة الاستشراق، بغداد - العراق 1995 ص 24.

وفضلاً عن ذلك فقد اعتقد الإنسان القديم أن في داخله شيء من القدسية أبرز ما تكون في الدم والشعر. ولذلك وإيماناً بقدسية المرأة فقد أطالت شعر رأسها لتساعدها قدسية شعرها على توفير الخصوبة التي تحتاجها أراضيهم الزراعية[1]. وهكذا صارت الآلهة الأم البدينة ذات الشعر الطويل رمزاً للمعتقدات الدينية الأولى التي أثرت لاحقاً في كثير من المظاهر الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية، وبالتالي شكل وتركيب القرى.

3- الخصائص العمرانية للقرى الزراعية وتغاير نمط البناء السكني المعبر عن تطور الفكر التخطيطي:

لقد أظهرت المراحل التكوينية[2] التي مرت بها نشأة وتطور القرى الزراعية بروز حالة من الارتقاء والتطور المتنامي في معالم الظواهر الاقتصادية والاجتماعية والدينية كخصائص انتابت تلك المستقرات البشرية الدائمة، والتي صارت القرية بواسطتها تشكل وحدة اقتصادية واجتماعية. وعبر ذلك التطور برز الجانب العمراني المعبر عن معالم فكر تخطيطي لدى إنسان ذلك العصر؛ فبعد أن كانت بيوت المواقع المكشوفة في العصر المتوسط وبداية العصر الحجري الحديث لا تتعدى كونها أكواخاً فوق حفر مستديرة من الأرض، نجدها أصبحت مستطيلة الشكل وذوات جدران من الطين، وقد رصفت أرضيتها إما بالقصب المملوط بالطين أو بالحجارة والجص المملوط بالطين، فيما سقفت بأغصان الأشجار المغطاة بالطين[3]. وقد عمد الفلاحون في تلك القرى إلى بناء بيوتهم السكنية بالشكل المستطيل والمنتظم لكي يساعدهم على تقطيع ذلك الفضاء الكبير نسبياً إلى مجموعة من الفضاءات (الغرف) بواسطة الجدران الفاصلة لغرض الاستخدامات المتعددة، حيث صار قسم من هذه الفضاءات مخصص للنوم وآخر لخزن الغذاء وآخر

١- رشيد، د. فوزي - مصدر سابق ص 25.

٢- لقد وضع كل من الدكتور تقي الدباغ "موسوعة المدينة والحياة المدنية ج 1 ص 13" والدكتور عدنان البدراوي "ج 3 ص 285" مراحل وفترات تحدد مسارات التطور في قرى العراق القديم أبرزت أهم الخصائص الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية لتلك القرى.

٣- ساكز - مصدر سابق. ص 27.

مطابخ (حيث وجدت آثار مواقد فيها)، وألحقت بتلك المنازل فضاءات خلفية استعملت كحظائر.

شكل 2: نماذج لدمى مختلفة للآلهة الأم، يشاهد فيها التركيز على المناطق الخصبة في المرأة (موسوعة حضارة العراق)

رابعاً: العصر الحجري المعدني (الكالكوليتي 5000-3000ق.م) وظاهرة انتشار القرى الزراعية الناضجة:

كان لتوفر فرص العيش في القرى الشمالية الأثر الكبير في تنامي الحياة الاقتصادية وزيادة عدد السكان فيها، مما دفع للبحث عن أماكن جديدة للاستيطان، سواء في المنطقة الشمالية نفسها أو بالانحدار نحو الجنوب عند الأراضي المتموجة قرب سامراء وتل الصوان بحدود الألف السادس وصولاً إلى الأراضي القريبة من حوض حمرين في بداية الألف الخامس، ليحل آخر العصور الحجرية المسمى بالعصر الحجري المعدني، الذي شهدت فيه

أراضي وادي الرافدين ابتداءً من شماله عند المنطقة الجبلية وحتى أقاصي السهل الرسوبي عند رأس الخليج مختلف أساليب وأنماط الاستيطان الدائم المتمثل بالقرى الزراعية، تلك التي بدأت في العصر الحجري الحديث بشكل مواز للثورة الزراعية، واستمر انتشارها جنوباً حتى منطقة السهل الرسوبي بشكل مرادف لخصائص التقدم والنضج الذي كان قد انتاب مختلف زوايا الحياة في أدوار ذلك العصر. وإذا كانت ميزة انتشار القرى الزراعية جنوباً هي من بين خصائص ذلك العصر، فإن أبرز ما صار يميزه هو الاستمرار بصنع الآلات والأدوات من الحجارة، وتطور الصناعات الفخارية والخزفية إلى جانب المعادن[1] التي شكل استخدامها في ذلك العصر جملة من التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية انعكست على المستوى الفكري والمعيشي والاستيطاني للسكان في قراه، حتى إذا ما بلغ ذلك العصر نهاية ألفه الرابع كان السومريون أبناء الأسلاف العراقيين المنحدرين من الشمال ممن سكن القسم الجنوبي قد أكملوا في قراهم جملة من الخصائص التي شكل بناؤها بدء فجر حضارتهم التي بزغت كأولى الحضارات في المعمورة، والتي كان أبرز معالمها ظهور المدن الطلائع التي صار تأريخها يشكل الحد الفاصل بين العصور الحجرية وما يعرف بعصر الحضارة، وصار وجودها يأخذ شكلاً آخر من البناء أو التكوين الحضاري لما تحمله من خصائص اقتصادية واجتماعية وعمرانية، لتضاف لها لاحقاً المفاهيم السياسية التي وجدت لها مكاناً في السلوك البشري عندما تحولت المدن في عصر فجر السلالات إلى دويلات تتنازع على السلطة شكلت ولادتها ثورة ثانية في حياة البشرية هي (الثورة الحضرية ونشوء الحياة المدنية) التي كانت أرض العراق منطلقها الأول، وكان يومها قد اهتدى الإنسان إلى معرفة الكتابة لتبدأ العصور التأريخية بكل ما تحمله من معان للنضج الحضاري.

١- موسوعة - العراق في التاريخ - مصدر سابق ص 59.

خصائص و تركيب
المستقرات البشرية لما قبل التحضر

{لقد كانت حضارة القرية الباكرة هي الأساس الذي انبثقت منه حضارة المدينة، بعد أن شهدت حضارة القرية تغيرات شاملة بدأت بزيادة السكان والمساحة المخصصة لهم، واتخاذها اتجاهات تشكيلية جديدة، وبنى مجتمعها أهدافاً اقتصادية واجتماعية وعمرانية}.
إن القرية عرفت المعالم الجوهرية التي تكونت منها المدينة فيما بعد؛ فالبيت والمعبد، وصهريج الماء، والطريق العام والسوق، قد نشأت كلها في القرية، وهي مظاهر أساسية ظلت تنتظر قيام المدينة للتطور قدماً في كشف تطورها الأكثر تعقيداً.

لويس ممفورد

المقدمة:

على الرغم من أن سكن الإنسان العراقي القديم كان أولاً في الكهوف والملاجئ الصخرية التي تضافرت العوامل الطبيعة على تكوينها ليستفاد من وجودها الطبيعي للالتجاء إليها لحماية نفسه من العدو وقساوة الطبيعة التي كان استخدامها واضحاً إبان العصر الحجري القديم الأعلى، كما في كهف شانيدر وكهف زرزي وهزارمرد. فمجرّد لجوء الإنسان لاتخاذ تلك الكهوف مسكناً طبيعياً يأوي إليه هو تفكير مسبق حدد نموذجاً من التفاعل بين ذلك الإنسان وبيئته انعكس على نمط حياته وسلوكه الاجتماعي والمعيشي؛ بينما لم يتكلف ذلك الإنسان بإقامة جدران في تلك الكهوف، ولم يتخذ أي شكل من المباني فيها؛ أما الجذور الحقيقية لتفكير الإنسان العراقي القديم في الحصول على مواضع سكن أفضل تؤمن له سبل الحياة، فيمكن تحديدها منذ مغادرته لتلك الكهوف، متخذاً من المواقع المكشوفة موضعاً لسكنه، حيث يتوفر فيها أساس اقتصادي تعتمد عليه حياته (بعد أن تحول إلى منتج القوت بدل جمعه)، ليؤمن فيها على نفسه وتجمعه البشري. وتمكن خلالها من أن يكيف مساكنه الأولى. لذلك سيتم تتبع هذه الخصائص ابتداءً من تلك المواقع وعبر أشكال الاستيطان اللاحقة،

لأنها أصبحت جذور النهج الفكري لعناصر البناء الوظيفي وأشكال المستوطنات البشرية وشكلت الفكر التخطيطي الذي استوعبته مدن العراق الأولى بعد أن حظيت بهذا التراكم من الخصائص التي أفرزتها حضارات العصور الحجرية المتلاحقة تبعاً لحاجة وتفكير الإنسان بها، مما يجعلها نابعة بشكل مبرر وأصيل.

الخصائص والعناصر الوظيفية للمستوطنات المكتشفة في العصر الحجري المتوسط «تركيب مستوطن نمريك»:

يعد الموضع الاستيطاني المكشوف نمريك[1] أول وأقدم المواقع المكتشفة في العراق حتى الآن. ويعود تأريخ أقدم طبقاته إلى الألف التاسع (بحدود 8300ق.م). تتوزع بقايا هذا الموضع، الذي تحول في العصر الحجري الحديث إلى قرية زراعية مأهولة السكن ولو بشكل متقطع لغاية 6500ق.م[2] تقريباً، على 6 طبقات سكنية رئيسة. يقع حالياً في محافظة دهوك على بعد 4كم غرب ناحية فايدة، وعلى بعد 2كم من ضفة نهر دجلة. وهذه أول حقيقة تخطيطية يمكن لمسها في موقع[3] وموضع[4] هذا المستوطن الذي يدل على مدى العناية التي كان يوليها الإنسان القديم عند اختياره لمستوطناته، حيث اتخذ من عامل وفرة مياه دجلة أساساً لموقع مستوطنته (شكل 3)، لما تشكله المياه من أهمية في حياة الكائنات الحية بما في ذلك الإنسان، لذلك أمن على نفسه وعائلته وتجمعه البشري المتعاون عن طريق اختياره ذلك الموقع القريب من المياه أولاً، وحمايته من الأخطار الخارجية بشرية أم حيوانية بحكم موقعه في منطقة وعرة ومتموجة تقطعها وديان عميقة ضمن حدود تقدر بـ 160م شمال جنوب و 100م شرق غرب (انظر خارطة الخطوط الكنتورية

١- اختير موقع نمريك كنموذج لمواقع العصر الحجري المتوسط المكشوفة نتيجة ما عثر عليه من مخلفات مادية أثرية تحمل أغلب خصائص مستوطنات ذلك العصر قياساً بمحدودية ما عثر عليه في مواقع أخرى كزاوي جمي وملعقات - وللمزيد من المعلومات يمكن الاطلاع على تنقيبات kozlowski-s-1988.

٢- الأعظمي. محمد طه "الأسوار والتحصينات الدفاعية في العمارة العراقية القديمة "أطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى مجلس كلية الآداب. جامعة بغداد 1992 ص 4.

٣- الموقع هو المكان الذي تشغله المستوطنة بالنسبة لما يحيط بها من مساحة.

٤- الموضع هو المكان الذي تغطيه المستوطنة فعلاً والذي يحمل كل الخصائص الطبيعية للمكان.

رقم(1 أ)، مما يجعل تلك المنطقة في منأى عن مناطق انحدار وتجوال الحيوانات المفترسة، وفي الوقت نفسه تشكل تلك الوديان مصدات آمنة من أخطار البشر الآخرين.

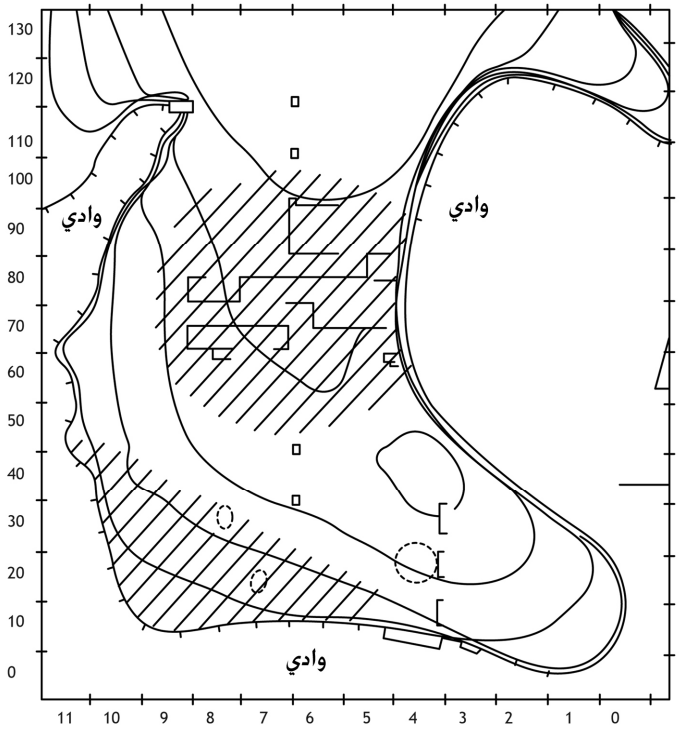

خارطة 1، أ: موقع نمريك. خارطة كنتورية وموقع التنقيبات

أما عن موضع المستوطن فقد تميز بالاستواء التقريبي في المنطقة الشمالية الوسطى الممتدة بين 4 و 3م من الخارطة الكنتورية 1- ب مع وجود انحدار طفيف نحو الجنوب والجنوب الشرقي يصل إلى متر، مما جعل أقدم المراحل السكنية على الرغم من محدوديتها تتركز في المنطقة الوسطى والجنوبية القريبة من موضع المستوطن المستوي. وقد بلغت أبعاد المنطقة السكنية الوسطى آنذاك نحو (100-80م^2)؛ شيدت على هذه المساحة عدد من البيوت التي حملت الخصائص العمرانية[1] لمواضع ذلك العصر، إذ بني قسم من تلك البيوت على شكل حفر دائرية جدرانها داخل الأرض،

١- الأعظمي - محمد. مصدر سابق ص 5.

وربما بني القسم العلوي منها بالطوف، وسقف بعد ذلك؛ فيما بنيت أكثر البيوت الأخرى على حفر دائرية يتراوح قطرها 5-6م شيدت أسسها وأسافل جدرانها من الحجارة والطين، وملطت الجدران بملاطة طينية رقيقة، وكسيت الأرضيات بطبقة من الطين سماكتها 10سم، وسقفت تلك المنازل بالقصب وأغصان الأشجار. وقد وجدت تحت أرضيات تلك البيوت هياكل عظمية وصلت إلى 15 هيكلاً تدل على أن ساكني المستوطن دفنوا موتاهم تحت أرضيات مساكنهم.

وإذا كان هذا كل ما يمكن أن يقال عن (تخطيط وتصميم) ذلك الموضع الاستيطاني في مراحله الأولى بسبب محدودية ما عثر عليه من مخلفات أثرية تشير إلى هذا النمط المتواضع من توزيع الفعاليات لسكان ذلك المستوطن، فإن المراحل اللاحقة التي اتخذت من المنطقة الجنوبية موضعاً لها بمساحة تقدر بين 1.5 و 2 هكتار بأبعاد تصل إلى 200-100م ممتدة من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي، فقد برزت فيها معالم توزيع وظيفي يدل على فكر اجتماعي واقتصادي وعمراني يمكن أن يعكسه توصيف المخطط الموضح في الخارطة رقم (أ - ب) الذي يوضح استعمالات الأرض في ذلك المستوطن.

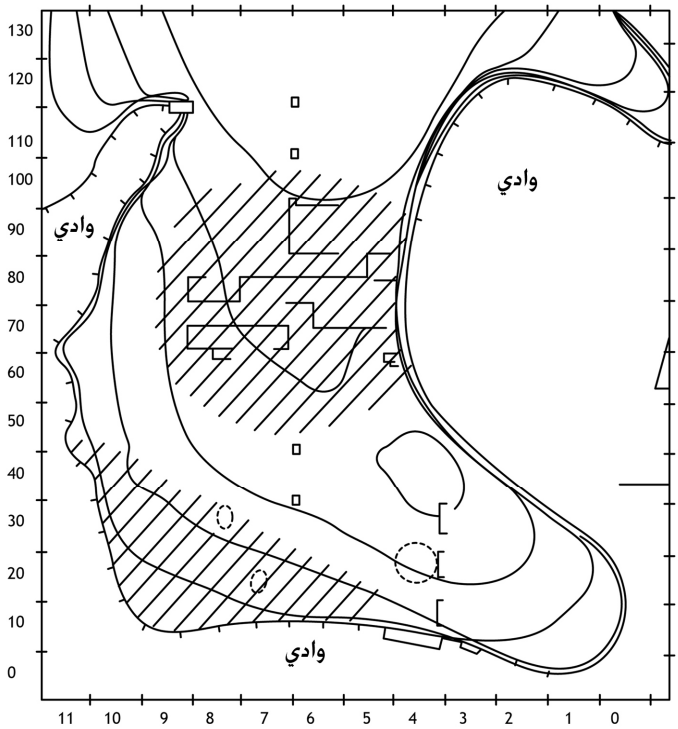

خارطة 1، ب: موضع مستوطن نمريك

فعلى الظاهرة الاستيطانية العمرانية احتلت بيوت السكن المنطقة المركزية من مساحة ذلك الموضع، حيث وصل عددها بين 4-6 بيوت في كل دور سكني، شيدت على مسافات متباعدة فيما بينها تصل بين 8-12م، وقد اتخذت من الشكل الدائري أساساً في تصميمها رغم أنها بنيت بأشكال مختلفة: منها مبانٍ دائرية واسعة المساحة يتراوح قطرها بين 5-8، وأخرى بيضوية الشكل قطرها 6م، فيما شيدت بيوت مضلعة الشكل بأبعاد 8-6م. وعلى الرغم من هذه الاختلافات في أشكال البيوت إلا أنها كانت تتميز بخصائص معمارية متشابهة فيما بينها، حيث حفرت الأقسام السفلى لهذه المنازل داخل الأرض التي شكلت حافاتها جدراناً لتلك المنازل، وأقيمت فوق تلك الحفر الجدران التي بنيت من الطوف[1] شبيه باللبن الطويل وبقياسات مختلفة بين 50-40×15سم 18 10×15سم. وكان البيت كان مقسماً من الداخل إلى مجموعة من الفضاءات بواسطة جدران ثانوية مبنية بالطوف أو اللبن طليت بطبقة من الملاط الطيني؛ وبلطت أرضيات تلك الفضاءات بقطع الحجارة الصغيرة والحصى، وملطت بالطين أيضاً؛ وثبت بناء المنازل بعدد من الركائز التي وصل عددها إلى 4 توزعت على الجهات الأربع بأبعاد متساوية تقريباً شكلت دعائم

١- الطوف: كتلة طينية تم معالجتها باليد لتصبح طويلة وشبه منتظمة لغرض رصفها في جدار البناء.

لتقوية البناء وتثبيته (شكل رقم 4)، وقد بنيت من الطوف الصلب بأبعاد تصل إلى 70×200سم وارتفاع يصل إلى 15سم، وهي موضوعة بباطن أسس هذه المنازل تحت مستوى أرضياتها بعمق 75-105سم، وقد سقفت تلك المنازل بالقصب وأغصان الأشجار وملطت بالطين. ولم تحتوِ تلك المنازل على النوافذ والمداخل، مما يدل على احتمال اتخاذ منافذ من أعلى الجدران أو من السقف، وهو بذلك أقرب إلى الحماية والأمان[1]. وعلى صعيد الظاهرة الاجتماعية نلاحظ ضمن مخطط استعمالات الأرض في هذا الموضع الاستيطاني أن المنطقة الجنوبية الغربية شكلت مكاناً لمقبرة جماعية خارج نطاق البيوت السكنية، وجدت فيها بقايا هياكل عظمية دفنت وفق وضعيات واتجاهات مختلفة[2] بعد أن كان السكان في مرحلة الاستيطان. أما في المنطقة الشمالية الغربية من موضع المستوطن، فقد انتشرت الحفر لدفن بقايا عظام الحيوانات التي كانوا يعتاشون عليها مثل الغزلان والدببة والثيران والخنازير البرية، مما يدل على أن الأساس الاقتصادي في ذلك المستوطن يعتمد على الصيد وتدجين الحيوانات وجمع التوت، وهذا يكفي لاعتباره موقعاً استيطانياً مكشوفاً وليس قرية أساسها الاقتصادي زراعي، على الرغم من أنه تطور لاحقاً إلى قرية زراعية.

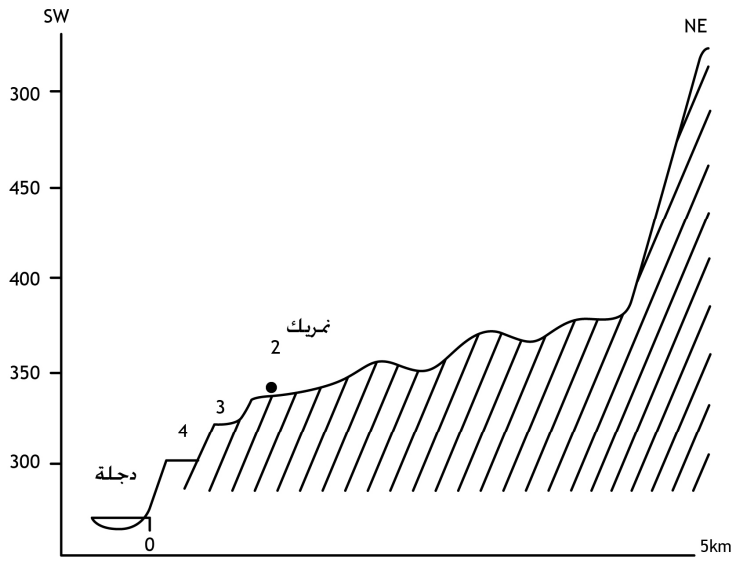

شكل 3: موقع المستوطن المكشوف نمريك من شرفات نهر دجلة (الأعظمي 1992)

١- الأعظمي مصدر سابق ص 5-6.
٢- الأعظمي مصدر سابق ص 6.

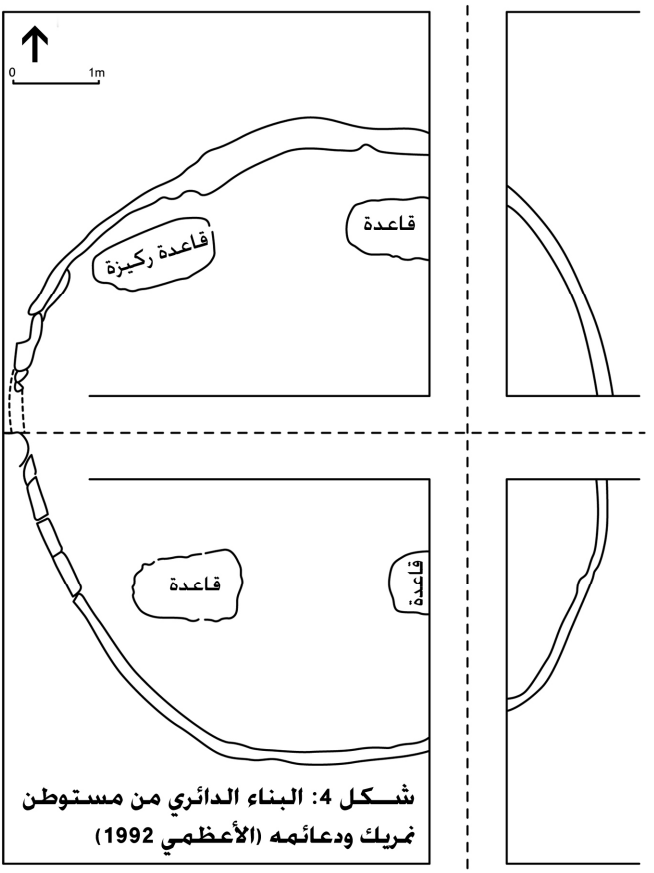

شـــكل 4: البناء الدائري من مستوطن نمريك ودعائمه (الأعظمي 1992)

وأخيراً، كما ذكرنا، فإن اختيار موقع نمريك ليعطي دليلاً أفضل على خصائص المواقع المكشوفة ومزاياها في العصر الحجري المتوسط يأتي نتيجة ما عثر عليه من مخلفات مادية تحمل أكثر خصائص مستوطنات ذلك العصر "قياساً بمحدودية ما عثر عليه في المستوطنات الأخرى مثل زاوي جمي وملفعات"، والتي يمكن تحديدها بما يلي[1]:

1- وضوح الخصائص الموقعية والموضعية في اختيار المستوطنات المكشوفة التي اتخذت من شرفات الأنهار والجداول موقعاً لها، لأنها أكثر المواضع استواءً قياساً بما يحيط بها من جبال ووديان التي كانت بمثابة

١- يلاحظ هنا مراعاة الشكل الأولي لعناصر التخطيط الحضري وخصائص الفكر التخطيطي التي سيأتي الكلام عنها في المدن السومرية، مما يعني أن جذور التخطيط تمتد إلى أول المواقع الاستيطانية التي شكلها إنسان العراق القديم.

مصدات ووسيلة أمان من الأخطار البشرية والطبيعية. وفي ذلك أيضاً مراعاة لبعض الخصائص البيئية.

2- ظهور معالم التوزيع الوظيفي المعبر عنها باستعمالات الأرض المخصصة لها من خلال ما عثر فيها على مخلفات مادية أشارت إلى نوع كل استعمال من أماكن للسكن وأخرى للمقابر.

3- وجود نوع من العلاقة بين الشكل والوظيفة، ولا سيما في العناصر العمرانية.

4- وجود أساس اقتصادي تعتمد عليه الحياة في المستوطنات المكشوفة، تمثل في الصيد وتربية الحيوان وجمع النبات الطبيعي.

الخصائص والعناصر الوظيفية لمستوطنات العصر الحجري الحديث:

أ- خصائص قرية جرمو "نموذج لمستوطنات العصر الحجري الحديث الأولى":

اتخذت قرية جرمو مستقرة بشرية على الدوام عند موضع حصوي متآكل على كتف منحدر جبلي[1] يشرف على وادٍ عميق يبعد 11كم شرق جمجمال (35كم شرق كركوك)، حيث وجدت آثار هذه القرية التي يعود تأريخها إلى الألف السابع. وبحكم ما عثر عليه من مخلفات بشرية مادية تعود لذلك العصر راح الباحثون يصنفونها على أنها أولى القرى الزراعية ذات التجمعات البشرية الفعالة عمرانياً واقتصادياً واجتماعياً.

ففي ذلك الموقع الذي تزيد مساحته على 13 ألف كم^2 عثر على ركام التجمعات السكنية والبنائية لقرية جرمو. وبالنظر إلى أهمية اختيار الموقع آنذاك من قبل سكانه، فإن صلاحيته للعيش كانت متوفرة بشكل متسلسل عبر 16 طبقة وجدت بقاياها ضمن الجزء المكتشف البالغ 1200م^2 على شكل كتل طينية محاطة بجدران مكومة فوق بعضها بارتفاع يصل إلى 6-7م. وعبر تلك الطبقات أمكن تمييز مراحل شتى من التطور العمراني والاقتصادي والاجتماعي[2].

١- على ارتفاع 2500م فوق سطح البحر.

٢- ستين. لويد. مصدر سابق. ص 36.

فعلى الصعيد العمراني ظهرت الوحدات السكنية بالشكل المستطيل؛ وصارت كل وحدة منها تضم مجموعة من الفضاءات التي بنيت جدرانها من الطين المشيد فوق أسس من الحجارة الطبيعية؛ وملطت تلك الجدران بالطين. كما بلطت الأرضيات بالطين أيضاً فوق طبقة من القصب. كما واستعمل القصب والخشب لسقف البيوت التي كانت مبنية بشكل مائل من جهة واحدة أو من جهتين لمواجهة الأمطار. وكان النموذج الأول لتلك البيوت ما عثر عليه في الطبقة الخامسة (شكل رقم 5)[1]. وعلى امتداد مساحة الموضع المكتشف الذي شغلته الطبقة الأولى (1200-1600م) تناثر ما يقرب من 25-30 منزلاً منفرداً في اتجاهات مختلفة بنيت جميعها بالشكل المستطيل ذي الأضلاع المستقيمة؛ وقد قطعت تلك البيوت إلى عدد من الفضاءات بواسطة الجدران المبنية بالطين (الطوف) المستندة فوق أسس حجرية بأبعاد تتراوح بين 2×1.5م و 5.60×2.20م[2]؛ خصصت تلك الفضاءات لمختلف الاستعمالات الحياتية، حيث جعل بعضها للنوم والمعيشة، والبعض الآخر للخزن وحفظ الحبوب، وأخرى كمطابع حيث تمر على مواقد ومدافئ طينية[3]. ألحقت بتلك المنازل فضاءات أخرى استخدمت كحظائر للحيوانات المدجنة التي دلت عليها المخلفات

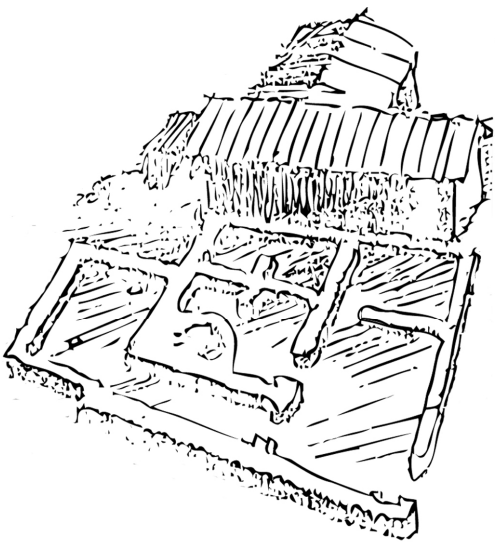

شكل 5: بيت منتظم من جرمو (الطبقة الخامسة) (نوفل 1990)

١- هندي. نوفل ناظم - خصائص الفكر التخطيطي للمستوطنات البشرية في بلاد ما بين النهرين رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى مركز التخطيط الحضري والإقليمي - جامعة بغداد 1990 ص 21.

٢- للمزيد من المعلومات انظر تنقيبات braidwood r.s and others others 1983 pp 155-503.

٣- انكشتاين. آدم. وآخرون "الشرق الأدنى والحضارات المبكرة" ترجمة د. عامر سليمان - جامعة الموصل - كلية الآداب - ص 34 وكذلك ساكز ص 29.

المادية التي تركتها تربية تلك الحيوانات[1].

وعلى الرغم من هذا التطور في شكل ونمط البناء قياساً بالعصر السابق إلا أن بدائية أساليب البناء ومواده المستعملة كان واضحاً، مما دفع إلى عدم قدرة تلك المنازل على تحقيق أشكال منتظمة لتوزيعها نتيجة الشكل اللا اتجاهي الذي كانت تأخذه تلك المساكن، فظهرت بشكل مبعثر يعكس التماسك الاجتماعي للقرية التي قدِّر عدد سكانها بـ 150 شخصاً، أي بمعدل 5 أشخاص[2] للبيت الواحد، وقد أثر ذلك في ترتيب القرية، فظهر بشكل غير منتظم.

أما على الصعيد الاقتصادي: فلقد وجدت الآثار الكافية التي أشارت إلى ممارسة سكان تلك القرية الزراعية، حيث عثر على أصناف من بذور الحنطة (ممثلة ببعض الحبوب المتفحمة من نوع einkorm وأخرى من نوع emmer، إضافة إلى حبوب الشعير البري الذي كان يزرع بدورتين؛ مما يؤكد اعتماد اقتصاد هذه القرية على الزراعة. كذلك وجدت بذور أنواع من البازلاء والفول والكتان لأهميته الاقتصادية في دهنه وخيوطه[3]. كذلك عرف اقتصاد قرية جرمو تربية الحيوان، حيث عثر على عظام لحيوانات مدجنة كالكلاب والماعز والخنازير مع الاستمرار بصيد بعض الحيوانات كالبقر الوحشي والغزال البري والفهد والدببة التي كانت تعيش في الغابات المحيطة. إضافة لذلك التقاط وجني الأثمار البرية كالبلوط وما شابه[4].

أما الصناعات التي كان يمارسها سكان قرية جرمو فقد تمثلت بقيام الأسر بصناعة ما يلزمها من الأدوات والآلات المنزلية، حيث عثر في الطبقات السفلى على آلات حجرية للحصاد والطحن والشفرات والأدوات المصنوعة من حجر الزجاج البركاني الأسود المستورد من الأناضول (عند بحيرة وان)[5]، كما عثر على أنواع من الحلي المصنوعة (بشكل أساور وخزف)، كذلك عثر على جرار حجرية جيدة الصنع في الطبقات السفلى مهدت السبيل لظهور سلسلة من الأوعية الطينية الملساء في طبقات السكن الوسطى زينت بشرائط مصقولة ومصبوغة بنماذج بسيطة، مما يدل على عدم معرفة سكان الطبقات العميقة لصناعة الفخار؛ وهذه حقيقة لمسها المنقبون، حيث لم يعثروا على الفخار إلا في الطبقات العليا

١- الأعظمي د. محمد مصدر سابق ص 8.
٢- الدباغ. د. تقي - موسوعة المدينة. مصدر سابق ص 22.
٣- ساكز. مصدر سابق ص 29 كذلك لويد، مصدر سابق ص 36.
٤- ساكز. ولويد. مصدران سابقان ص 29 ص 37 على التوالي.
٥- لويد. مصدر سابق ص 36.

(الثلث الأخير) من ركام قرية جرمو، وهذا ما دفع الآريين إلى تقسيم العصر الحجري الحديث إلى دورين رئيسين حسب صناعة الفخار هما[1]:

1- دور قرى العصر الحجري الحديث لما قبل الفخار pre-pottery بين الألف الثامن والسابع ق.م. وهي الفترة الأولى لتكون القرى الزراعية في شمال العراق. وتقع ضمن تلك الفترة ثلثا طبقات جرمو.

2- دور قرى العصر الحجري الحديث التي عرفت الفخار (دور الفخار potter Neolithic) في فترة ما بعد الألف السابع ق.م. وهي الفترة اللاحقة لتكون القرى الزراعية التي شهدت أطوار ازدهار القرى الفلاحية في شمال العراق، وزاد فيها اعتماد الإنسان على الزراعة وتدجين الحيوانات.

وإزاء ذلك التقييم فإن قرية جرمو تعد أول قرى العراق التي عرفت صناعة الفخار، سواء حدث ذلك أصلاً في هذه القرية أم نقل إليها من مواقع أخرى[2]. وعلى الرغم من بساطة الأواني الفخارية التي عثر عليها في جرمو، حيث تتضح سماجة صنعها من سماكة جدرانها الهشة الشائبة والخالية من الألوان سوى نقوش من خطوط متقاطعة مصبوغة باللون الأسود، إلا أنها خطوط تفسر بشكل واضح طبيعة تعامل الأفراد مع البيئة الجديدة. وكان الدافع الرئيس لصناعتها الطبع وحفظ السوائل وخزن المواد المختلفة بدلاً من الأواني الحجرية. ومع كل هذه التطورات الاقتصادية لقرية جرمو فإنها لم تخرج عن كونها وحدة اقتصادية مغلقة ذات اكتفاء ذاتي أسوة بقرى العصر الحجري الحديث الأول.

أما على الصعيد الاجتماعي والمعتقدات الدينية: فعلى الرغم من ضعف التماسك الاجتماعي الذي عبر عنه بتناثر المباني السكنية، فإن ذلك لم يمنع من ظهور معالم البناء الاجتماعي المتمثل في طبيعة التجمعات السكانية نفسها التي شكلت وحدات اجتماعية يتعاون جميع أفرادها لتوفير سبل العيش، وظهور خصوصية للأسرة ضمن ذلك البناء بوضعها وحدة اجتماعية إضافة إلى كونها وحدة اقتصادية. وعن ممارسة السكان للمعتقدات الدينية والروحية فقد عثر على دمى طينية للآلهة الأم التي كانت تمثل المحور الرئيس لتلك المعتقدات، حيث كانت الخصوبة والتكاثر ذات أهمية قصوى في المجتمع. أما عن دفن الموتى فقد وجدت قبورهم تحت أرضيات البيوت السكنية.

١- بصمجي د. فرج صناعة الفخار في العراق القديم - مجلة سومر م 4 ج 1 ك 2 1948 ص 15-46.

٢- يعلق الدكتور ساكز على هذا الحدث فيقول "إن عدم العثور على الفخار في المراحل الأولى من صناعته في جرمو ينفي الرأي القائل بأن هذا التطور المهم كان قد حدث أصلاً في ذلك الموقع". ساكز مصدر سابق ص 29.

ب- خصائص قرية حسونة "نموذج لقرى العصر الحجري الحديث المتطورة":

عصر ما بعد الفخار:

على الرغم من ظهور قرى زراعية أخرى اتخذها الإنسان العراقي القديم مواضع استيطانية دائمة في العصر الحجري الحديث بعد قرية جرمو مثل شمشاره، مطارة، أم الدباغية، بارم تبه، وغيرها، إلا أنها لا تبتعد كثيراً عن الخصائص الحضارية لجرمو؛ وفي الوقت نفسه لا تعطي خصائصها علامة واضحة عن حضارة المستوطن النموذجي الذي وجدت آثاره في موقع استيطاني يبعد عن الموصل 35كم جنوباً ويقع على تل يبعد 5كم عن الضفة اليمنى لنهر دجلة يعرف "بتل حسونة"؛ وقد عثر فيه على آثار قرية كبيرة على مساحة تبلغ 30 ألف م^2 تقريباً تعود إلى أوائل العصر الحجري الحديث، واستمر وجودها ليعاصر الحضارات اللاحقة، لذلك أظهرت التنقيبات لمديرية الآثار العراقية بين عامي 1943-1944[1] وجود (16) طبقة أمكن خلالها تميز عدد من الأطوار الحضارية في حسونة، إذ تشير الطبقات السفلى لهذا المستوطن إلى أنها تمثل حضارة مستوطن زراعي في المراحل الأولى لعصر إنتاج القوت، حيث لم يعثر في تلك الطبقات على بقايا بيوت مشيدة، مما يدل على استخدام السكان للخيام والأكواخ للسكن كونهم من مجتمعات بدائية تمارس الانتقال من موقع استيطاني إلى آخر على الرغم من ممارستها للزراعة البدائية التي كانت أهم أدواتها الفأس التي وجدت نماذج منها في تلك الطبقات المبكرة، مثلما وجدت نماذج من المجارش وبعض الآلات الحرجية الأخرى إضافة إلى فخاريات سمجة بأعداد كبيرة، لذلك لم تخرج حضارة تلك الطبقات عن كونها تعود لمستوطنة مغلقة تكوّن وحدة اقتصادية مكتفية ذاتياً باستثناء استيرادها لحجر الأوبسبدين[2]. وبعد هذا الطور البدائي من أشكال استيطان العصر الحجري الحديث من حسونة وجدت في الطبقات الاستيطانية التالية (الست الأخيرة) ملامح حضارية جديدة ذات خصائص عمرانية واقتصادية توحي بتطور أشمل لمجتمع سكان قرية حسونة التي صارت توصف من خلاله بالقرية النموذجية لذلك العصر.

فعلى الصعيد العمراني: إذا تجاوزنا مرحلة السكن في المخيمات الدائرية التي ضمتها الطبقات السفلى لقرية حسونة، فإن الطبقات الست العليا حوت منازل سكنية أكبر حجماً وأفضل بناء عن نماذج دور جرمو وما تلاها من قرى. وكانت قد ابتدأت بتلك النماذج النباتية التي كانت عبارة عن فضاءات صغيرة ذات جدران غير منتظمة مشيدة من مادة الطين ومرتبة حول فناء مفتوح؛ وفي المرحلة الثانية

١- تنقيبات لويد وفؤاد سفر.

٢- ساكز. مصدر سابق ص 30.

أصبحت تلك البيوت أقرب إلى الشكل المستطيل منه إلى المربع، ويضم عدداً كبيراً من الغرف؛ بينما تكامل الشكل المستطيل في المرحلة الثالثة من تطور البناء في قرية حسونة[1] كما في النموذج الذي يصوره الشكل رقم (6). وكقاسم مشترك لنماذج هذه المنازل، سواء في مراحلها الأولى أو ما عثر عليه في الطبقة الأولى والثانية التي يصورها الشكل رقم (7)، فإن تلك البيوت في حجمها وتصميمها ومواردها الإنشائية غريبة الأطوار عما ألفته قرى الشمال في جوانبها العمرانية؛ فقد وجد أن كل بيت يتألف من عدة غرف صارت ست أو سبع غرف مرتبة في قاطعين ممتدين حول فناء (باحة وسطية)، وقد خصصت فضاءات أحد القواطع للنوم وغرف المعيشة الأخرى بينما اتخذ القاطع الآخر كمخازن ومطابخ ومواقد. ويعد وجود مثل ذلك النمط العمراني للبيوت أول التطورات التي شهدتها قرية حسونة من جهة، وفي الوقت نفسه ضمن بيوت حسونة (أول الأصول الشرقية) النموذجية التي لازال حتى الآن بالإمكان مشاهدتها في مخططات البيوت العراقية متمثلة بمجموعة من الغرف حول فناء وسطي (الحوش)[2]، وفي تلك النماذج تميز البناء بانتظام أكثر في تشييد الجدران رغم تعدد المرافق ووجود الممرات، إضافة إلى المخازن والزرائب التي كانت مفصولة عن

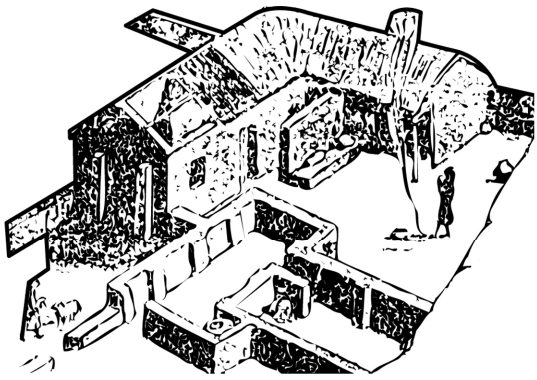

شكل 6: صورة مجسمة لدار عثر على أسسها في تل حسونة الطبقة الرابعة (موسوعة حضارة العراق 1985)

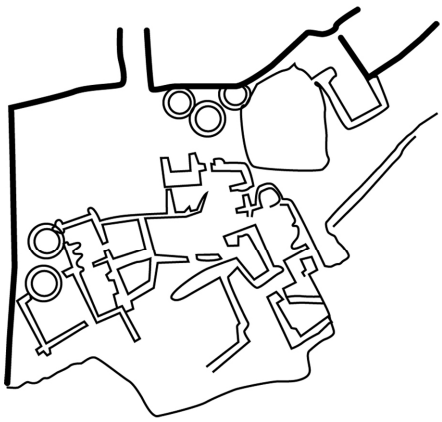

شكل 7: بقايا جدران وموجودات الطبقة الثانية من مستوطن حسونة (موسوعة حضارة العراق)

١- الجادر د. وليد موسوعة حضارة العراق ج 3 ص 81.
٢- جورج رو مصدر سابق ص 89.

المنازل بواسطة ألواح من الحصران أو الشوك أو الطوف. كذلك ظهر نظام الدكات أو المرتفعات التي استخدمت بشكل دعامات داخل البيوت.

ولأول مرة ظهر استخدام محاجر الأبواب لتسمح بحركة الأبواب على مصارعها، مثلما عرفت صناعة المناجل الصوانية المشطية المثبتة بواسطة غير مناسبة على قاعدة خشبية.

أما على الصعيد الاقتصادي: على الرغم من كون تلك المستوطنة تحمل خصائص المستوطنات المغلقة كون اقتصادها مكتفياً ذاتياً، إلا أن تلك المستوطنة شهدت نشاطين اقتصاديين زيادة عما شهده اقتصاد جرمو والقرى اللاحقة بها هما:

1- استيراد حجر الأوبسيدين وبعض الأحجار الثمينة كالفيروز والملكايب التي استخدمت لصنع الخرز والتمائم، وبالتأكيد فإن مثل تلك المواد جلبت مع مواد أخرى قابلة للتلف والتي لا يمكن للتنقيبات العثور عليها[1] حيث عد هذا النشاط أول أشكال التجارة الخارجية في حياة المستوطنات البشرية وفي العراق القديم أيضاً.

2- ممارسة الصناعات الفخارية كأول نشاط صناعي غير الآلات الحجرية التي تميزت بها العصور السابقة، وكان هذا النشاط قد بدأ بصنع الجرار التي استخدمت لحفظ الحبوب ثم تطور إلى أنواع من الفخاريات المنقوشة التي صار وجودها يوحي بمرحلة تاريخية أعلى نوعاً مما كانت، وأمكن من خلالها إجراء مقارنات بين حسونة وأقسام أخرى من الشرق الأدنى على صعيد العلاقة أو التطور الحضاري لذا استطاع الآثاريون تصنيف الصناعات الفخارية إلى ثلاثة أقسام هي[2]:

أ- فخار حسونة القديم: ظهر في الطبقات الثلاث الأولى (من الأسفل) على شكل طاسات وقدور وجرار كبيرة وأقداح وصحون صغيرة الحجم. مثل تلك الفخاريات عثر عليها في معظم قرى العصر الحجري الحديث في غرب آسيا، وهي لا تقدم إلا القليل جداً من المعلومات عن الأصول المحلية لمواقعها، ويوجد

١- المصدر السابق ص 31.

٢- ظهر في الطبقات الست السفلى من حسونة بينما ضمت الطبقات التالية فخار عصر حلف والعبيد حتى العصر الآشوري، ولذلك فقد اقتصر فخار حسونة على المنطقة الشمالية فقط، وللاطلاع على الصناعات الفخارية من حسونة تراجع المصادر التالية: جورج رو - العراق القديم ص 89-91 وموسوعة حضارة العراق ج 3 ص 16-17.

هذا النوع من الفخار أيضاً في سوريا وفلسطين مما يشير إلى صلة قرية حسونة بتلك المواطن[1].

ب- فخار حسونة القياس (الخاص): عثر عليه في الطبقات (4-6) من الأسفل تتمثل في ثلاثة أنواع من الأواني: الأولى أوان محرزة، والثانية أوانٍ ملونة وناعمة ومدلوكة والنوع الثالث أوانٍ مخززة وملونة. ولقد أجمع الآثاريون على أن هذا الفخار هو من صنع محلي على الرغم من كونها قد بدت صناعة غريبة عن فخاريات المنطقة الخالية.

ج - فخار حسونة المتطور (السامرائي): وهو ذلك الفخار الذي وجد في الطبقات العليا من حسونة. نعت تارة بالفخار المتطور قياساً بالأشكال والأنواع السابقة، وتارة بالفخار السامرائي حيث عثر عليه لأول مرة عام 1911 في مقبرة لما قبل التاريخ تحت بيوت سامراء العاصمة العباسية المشهورة، والذي يصفه جورج رو بأنه "فخاريات فخمة حقاً ولا يتوقع المرء أن تتواجد في أماكن بدائية كهذه"[2] لما تميزت به من تصاميم هندسية ونقوش وصفها الآثاريون بأنها إيرانية الصنع، وقد صنعت من قبل مجموعة صغيرة من الحرفيين الذين اجتازوا الحدود عن طريق تنقل عادي وليس ضمن موجة احتلالية[3] لذلك وجد هذا الفخار في وادي دجلة العلوي (من سامراء حتى نينوى) ووجد أيضاً في حلب بسوريا، وقد باتت مثل تلك الحالة تؤكد صلة قرية حسونة بالشرق الآسيوي من جهة، ووحدتها السكانية العرقية والحضارية مع الغرب من جهة أخرى. وهكذا وعن طريق جملة التطورات العمرانية والاجتماعية والاقتصادية التي حوتها قرية حسونة ولا سيما صلتها المزدوجة بالشرق والغرب فإننا نجدها تقدم صورة حساسة لمختلف التأثيرات التي تعرض لها عراق ما قبل التأريخ، وللتقدم السريع الذي أبداه سكان وادي الرافدين في مسار التطور الحضاري، مما يدفعنا إلى تتبع عميق لمسار التطور في القرى اللاحقة من العصر الحجري الحديث ليكون آخر تلك النماذج

١- جورج رو مصدر سابق ص 19.
٢- المصدر السابق ص 90.
٣- المصدر السابق ص 90.

هو مستوطن تل الصوان الذي يوضح اندفاعاً للقرى الشمالية نحو الأرض شبه الجبلية والمتموجة لأسباب يجب معرفتها؟.

ج- تل الصوان، وظاهرة انحدار قرى العصر الحجري المتأخرة نحو الجنوب:

يشير الموقع الذي اتخذته مستوطنة تل الصوان إلى الجنوب من مدينة سامراء بحدود 11كم، على الحافة الشرقية لنهر دجلة، إلى حقيقة صار تلمسها واضحاً في موقع قرية حسونة ومطاردة (جنوب كركوك) الذي أوحى ببدء تحرك وانتشار السكان والمزراعين من سكان قرى شمال العراق الأوائل باتجاه الجنوب ليكوِّنُوا فيما بعد الطلائع البشرية التي سكنت القسم الجنوبي من العراق، وأرست دعائم البناء الحضري فيه. وما إن وصل العصر الحجري الحديث إلى الألف السادس ق.م حتى وصلت بعض القرى إلى المنطقة الوسطى القريبة من شمال بغداد حالياً عند نهر دجلة وفروعه، وكان مستوطن سامراء ثم تل الصوان الذي يعد أهم وأبرز تلك المستوطنات التي مثلت آثارها حضارة تلك الفترة. وإذا ما حاولنا إعطاء تفسير علمي لهذه الظاهرة وجدناها تحاكي العوامل الطبيعية التي أدَّت الدور الرئيس في نشوء وتطور المستقرات البشرية منذ أن غادر الكهف واتخذ من المواقع المكشوفة أول مستقر له، والتي تطورت في فترة العصر الحجري الحديث إلى تلك القرى الزراعية المكتفية ذاتياً، حتى صارت المنطقة الجبلية ووديانها في شمال وشمال شرق العراق تعج بها يوم كانت أمطارها تسقط بالكمية الكافية لنمو الحقول الزراعية المعتمدة عليها كزراعة ديمية. ولكن ما لبثت تلك القرى الزراعية أن نمت واتسعت مساحتها وحقولها وازداد عدد سكانها بالشكل الذي لم تعد تتحمله المنطقة اقتصادياً، لذلك نزح العدد الفائض من السكان إلى تلك المناطق المحصورة بين بغداد وجنوب الموصل "منطقة الجزيرة حالياً، وعراق ما بين النهرين Mesopotamia سابقاً" وهي مناطق وإن كانت ديمية الزراعة إلا أنها مناطق شحيحة الأمطار نسبياً، فكان من الأجدر بسكان قرى تلك المناطق[1] أن يتقربوا في مواقع قراهم من الأنهار وفروعها فكان "مستوطن تل الصوان" القريب من نهر دجلة نموذجاً لهذه القرى المنحدرة جنوباً، مع استمرار اعتماد الزراعة الديمية على الأمطار بشكل رئيس واستمرار زعامة المرأة للطقوس الدينية ومسؤوليتها في جني المحاصيل الزراعية من جهة أخرى. ولما صار لزاماً البحث عن أساليب اعتقادية "كالاعتقاد بالآلهة الأم من أجل الخصوبة

١- استخدام مصطلح ميترو موتاميا منذ القرن الرابع قبل الميلاد من قبل الكتاب اليونان للدلالة على المنطقة الواقعة بين النهرين من الشمال حتى الجنوب (ساكز ص 23).

والإنتاج" كانت عملية ممارسة استنزال المطر؛ أي طقس الاستسقاء[1] وهي المهمة الأخرى التي أوكلت للمرأة ما دامت الأمطار تشح في تلك المناطق لسنة أو سنتين وربما أكثر[2] وإذا كانت آثار ذلك الطقس شكل رقم (8) تمثل واحداً من الجوانب الاعتقادية ذات التأثيرات في الظواهر الاقتصادية والاجتماعية فإن تلك الظواهر نفسها أخذت بعض الاتجاهات في مستوطن الصوان. فعلى الصعيد الاجتماعي بات مؤكداً أن مجتمع تل الصوان ليس إلا بقايا ذلك العدد الفائض من السكان الذي كان يقطن قرى الشمال وقد نزح جنوباً من مواقع تلك القرى وكانت طلائعه النازحة قد استوطنت في شمشارة مطارة ثم حسونة[3] وبالتالي فهو المجتمع السكاني الشمالي نفسه جنساً وتركيباً وعقائداً، حيث استمرت عبادة وتقديس الآلهة الأم التي وجدت نماذج لها في مواقع شتى من المستوطن ولا سيما في قبور تحت بيوت الطبقة الأولى التي زاد عددها عن مئة قبر، وبالإضافة إلى ما وجد فيها من هياكل عظمية كانت هناك مجموعة من دمى الآلهة الأم منحوتة من حجر المرمر الشحمي الجميل، حيث عثر على هيكل عظمي لامرأة مطلي بالغرة وقد دفنت معها مجموعة من القلائد ذات خرز من مختلف المواد من بينها خرز النحاس الخام مع مجموعة من تماثيل منحوتة من المرمر من بينها تمثال للآلهة الأم مما يدل على الاعتقاد بحياة ما بعد الموت[4]. ومع استمرار كل تلك الأحوال الاجتماعية والعقائدية فإن ذلك المجتمع بات مجتمعاً أكثر تحفزاً لتأمين اقتصاده وحماية نفسه بجو

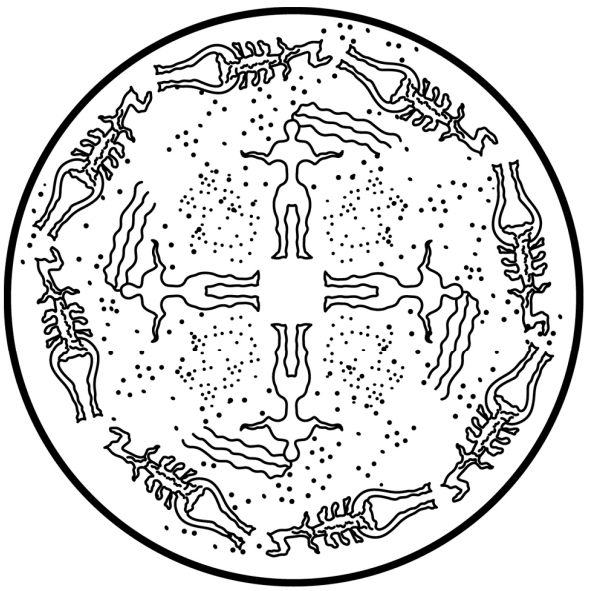

شكل 8: طقس الاستسقاء كما ظهر على إناء فخاري من سامراء - رشيد - الاستشراق 1955

١- انظر فوزي رشيد. الاستشراق وأثره... مصدر سابق. ص 26.
٢- رشيد. د. فوزي "الاستشراق وأثره على الحضارات القديمة" ص 26.
٣- الجادر، د. وليد - موسوعة المدينة... مصدر سابق. ص 650.
٤- ساكز. مصدر سابق. ص 21.

عال من التعاون عبرت عنه الأساليب الاقتصادية والعمرانية التي أنجزها ذلك المجتمع. والتي أبرزها مشاركة الرجل للمرأة في النشاط الزراعي والديني.

وعلى الصعيد الاقتصادي: كشفت التنقيبات أن اقتصاديات هذا المستوطن ظلت معتمدة على ممارسة الزراعة التي لم تعد ديمية فحسب، حيث دلت دراسات المتخصصين عن طريق النماذج المتفحمة التي عثر عليها في الجهة الشمالية من المستوطن أنها حبوب لمحصولي الحنطة والشعير وبذور الكتان والقنب التي كانت تسقى مباشرة من مياه النهر، مما يدل على حدوث نمط في الزراعة يعتمد على الري سقياً[1]. كذلك زودتنا بحوث المتخصصين في التربة وعن مواضع مختلفة من زوايا الأجزاء والبقايا النباتية بالعثور على بقايا عظام للحيوانات المدجنة والبرية التي اقتات سكان المستوطَن على لحومها واستفادوا من أصوافها وجلودها. وقد وجدت فعلاً مجموعة من عدد الخياطة كالإبر والمخارز وهي أدلة قاطعة على ممارسة سكان هذا المستوطن لخياطة الملابس من الجلد أو الصوف أو الشعر التي يحصلون عليها من تربية تلك الحيوانات. ومما كان يعزز هذه المكتشفات العثور على مغازل مصنوعة أقراصها من الفخار أو الحجر لغزل تلك الأصواف، بل كان العثور على ثقالات حجرية أو فخارية تعود إلى أنواع بدائية من كوم الحياكة خير دليل على حياكة الأقمشة واستعمالها للملابس والحاجيات الأخرى[2] كيف لا وبقايا العظام تشير إلى أن تلك الحيوانات كانت خرافاً وماعزاً وأبقاراً أو كذلك غزلاناً وثيراناً برية ومن جهة أخرى لم يكتف بالاستفادة من النهر في سقي المزروعات بل لصيد السمك كثروة جديدة تضاف إلى اقتصاد المستوطنة[3] وكمستوطنة تنتمي إلى العصر الحجري الحديث وتمثل الحدود الجنوبية لانتشار القرويين في عصر حسونة فقد وجد في تل الصوان وفي طبقاتها السفلى أوانٍ فخارية من نوع فخار حسونة القديم، أما الطبقات العليا ولا سيما الأخيرتان فقد وجد فيها فخار حسونة النموذجي وكل أنواع الأواني البسيطة والخالية من النقوش المدلوكة والملونة وكذلك المخرزة والملونة بالوقت نفسه[4]. وفي تل الصوان استمرت صناعة الآلات والأدوات الحجرية، حيث عثر على مجموعة كبيرة منها في المخازن والغرف كالمجارش التي كانت بشكل سرج حصان، ومدقات كروية وطويلة وهاونات ومناجل من حجر الصوان، كذلك عثر على أوان حجرية وكان قسم منها بشكل جميل وثمين ولا سيما تلك التي عثر عليها في المقابر مع دمى منحوتة من حجر المرمر إضافة

١- موسوعة المدينة. مصدر سابق ج 1 ص 67، وموسوعة حضارة العراق ج 1 ص 127.
٢- موسوعة حضارة العراق. مصدر سابق ج 1 ص 128 العراق.
٣- موسوعة المدينة. ج 1 ص 67 عن جورج رو مصدر سابق ص 36-46.
٤- حضارة العراق. مصدر سابق ج 1 ص 128.

إلـى مجموعـة مـن الحلـي التـي كـان بعضـها مـن أحجـار كريمـة كـالعقيق والفيروز والزبرجد[1]، مما يدل على وجود صلات تجارية مع مصادر تلك المعـادن. أمـا علـى صـعيد الفكـر التخطيطـي والعمرانـي: فلـدى سـكان تـل الصـوان ممارسـات تـدل فعـلاً علـى تسـخيرهم كثيـراً مـن الأشـكال المعماريـة لأداء الوظائف الاستيطانية تمثلت في:

1- اختيار موقع وموضع مستوطنة تل الصوان: إذ يعتبر هذا المستوطن من أوسـع المسـتوطنات الزراعيـة التـي تعـود إلـى فتـرة العصـر الحجـري الحـديث المتـأخرة (بحـدود الألـف السـادس ق.م[2]) وقـد تشـكل بهيئـة مجمـع مـن ثـلاث مستوطنات متجاورة تقع عند رابية تل يرتفع عما حوله من أرض بحدود 3.5م على الضفة الشرقية لنهر دجلة، وبذلك يكون موقع المستوطنة قد أمن أحد مصادر الحياة المهمة وهو الماء إضافة إلى استمرارية الحفاظ على الضفة الموقعية لبقاء مستوطنات العصر الحجري الحديث المتأخرة في حالة الارتفاع عَمَّا جاورها من الأرض التـي صـار يسـتفاد منهـا لأغـراض زراعيـة ورعويـة. ويعتقـد أن سـبب اختيار هذا الموقع الشرقي الجنوبي من النهر يعود لأسباب مناخية فالرياح السائدة وهي الشمالية الغربية التي تمر فوق النهر تساعد على تلطيف الجو. لذلك يلاحظ توقيع الأبنية في موضع المستوطنة بالاتجاه - شمال غرب - جنوب شرق - شكل رقم 9[3].

١- المصدر نفسه. ص 127.

٢- تعود هذه المستوطنة إلى فترة حضارة حسونة وسامراء، حيث دلت آثارها على ذلك. كذلك وجدت بقايا معمارية تعود لعصر حلف وقد نقب بها من قبل. بعثة مديرية الآثار العمرانية سنة 1946 (أبو الصوف عام 1968 ص 37-48).

٣- هندي - مصدر سابق - ص 28 دوني جورج - مصدر سابق ص 112.

2- إذا كانت أبنية الطبقة الأولى من تنقيبات المستوطن قد كشفت عن بقايا بيوت مشيدة باللبن الذي ظهر استخدامه لأول مرة في العراق القديم، وكانت تلك البيوت على جانب كبير من التطور بالنسبة إلى البيوت السابقة على الرغم من أن أسلوب تخطيط البيوت استمر وفق النمط المستطيل فيمكن ملاحظة حالات عدة وهي:

أ- إن الطبقات السكنية الأولى حتى الثالثة ضمت وحدات بنائية سكنية تمثل حالة من الرقي في الفكر المعماري لم يصل إليها في العراق القديم لغاية الألف السادس. وفي تل الصوان تحديداً تبين أن الأبنية السكنية التي شيدت في هذه الطبقات لم تكن مجرد وحدات بنائية لقضاء وظيفة قابلة للتغيير والتوسع، بل كانت أبنية (خطط لها) لتكون بهذا الشكل وبهذه المساحات وبتلك الاتجاهات. ربما كان الغرض الاستفادة من المساحات المبنية. ومن ذلك استخدام الممرات والأزقة للتنقل. (انظر شكل رقم 10).

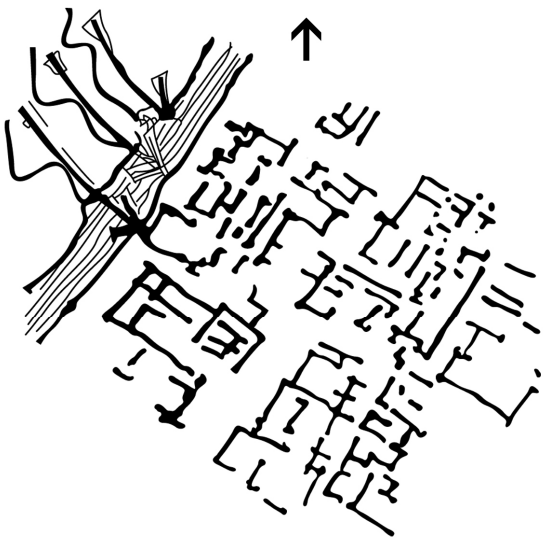

شكل 9: اتجاه الرياح السائدة مع موقع مستوطن تل الصوان (نوفل مووا)

شـــكل 10: تكون الأزقة والشوارع في تل الصوان نتيجة لتوزيع الوحـــدة التصميمية ذات الشـــكل المشـــابه للحـــرف (T) (نوفل هندى 1990)

ب- لقد كشفت أبنية الطبقة الأولى والثانية (من الأسفل) أن التكوين المعماري لتلك الوحدات كان بالشكل المربع أو المستطيل. الشكل (11). وقد تطور في الطبقة الثالثة وصار يشبه الحرف C T C T- form (شكل 12) وهو تكوين معماري فريد لم يشهده أي موقع من العراق القديم من قبل. وقد بدت تلك الأبنية وكأنها مكونة من مستطيلين أو مربعين أو كليهما أي مستطيل ومربع بشكل متعامد يتألف كل منهما من ثلاثة أجزاء (partile-tri). وهي صفة معمارية تظهر لأول مرة، لذلك وصفت أبنية تل الصوان بأنها ثلاثية.

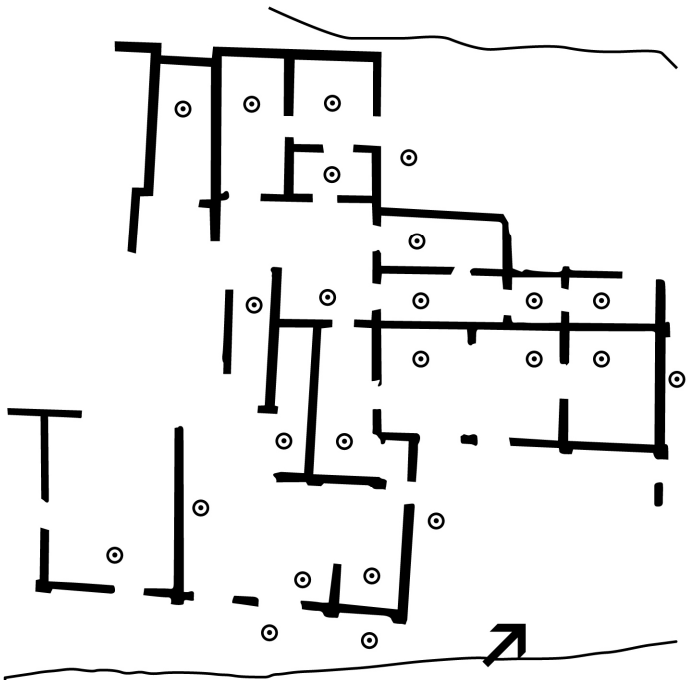

شـــكل 11: بنية ذات تقســـيمات دقيقة من تل الصوان الطبقة الأولى والثانية تظهر الشكل الثلاثي الذي تحول إلى شكل حرف (T) فيما بعد (د. الوائلي- وأبو الصوف 1965)

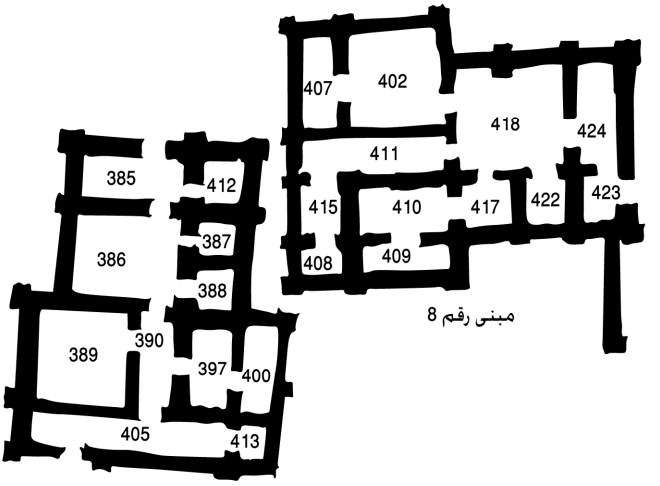

شـــكل 12: الشـــكل T في بناء منازل في تـــل الصوان الطبقة الثالثة (نوفل 1990)

ج- كشف التنقيب أيضاً عن وجود وحدات بنائية متميزة يعتقد أنها كانت تستخدم لوظائف عامة (أبنية عقائدية مثلاً) تميزت بكبر مساحتها التي وصلت إلى 14×9م حوت على خمس عشرة غرفة مشيدة باللبن كبير الحجم. وصلت مقاساتها 50-70-210-30-6-8سم (شكل 13) وقد استخدم نظام السلالم المشيدة من الجص لتصل إلى السطوح[1] وقد زاد وجود مقابر للأطفال أسفل تلك الأبنية من الاعتقاد بكونها أبنية دينية إضافة إلى وجود دمى للآلهة الأم بل عثر من بين تلك الأبنية على وجود حنية من جدران أحدها في أسفل تلك الحنية وجد تمثال للآلهة الأم[2].

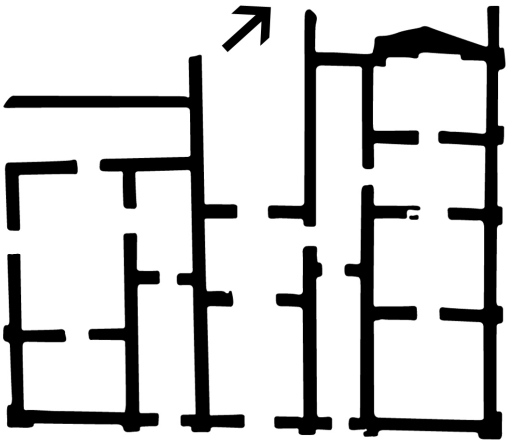

شكل 13: نموذج للأبنية العقائدية (جورج 1986)

3- لقد كانت المواد المستعملة في البناء بشكل عام هي اللبن المشكل من الطين النظيف. وقد تمت تقويته بالقش والتبن واستخدمت مواد رابطة (مونة) بين اللبنات، كذلك استخدم الطين في ملاط الجدران من الداخل والخارج. أما إكساء أرضيات الغرف وملاط الجدران فقد تم[3] بالحصى[4].

4- تميز أسلوب التسقيف بوضع قطع من الخشب وضعت فوقها قطع من الحصران لبدت بالقير الذي ظهر استخدامه أيضاً لأول مرة. وقد عثر فعلاً على مثل هذا الاستخدام في أبنية تل الصوان، كذلك استخدم القير كمادة عازلة في الأماكن التي يتطلب عزلها[5].

5- كذلك ظهر استخدام سكان مستوطنة تل الصوان مخازن للغلال، كالتي عثر عليها في مستوطنة أم الدباغية، وهي مغطاة من الداخل بملاط من الجص

١- جورج رو. مصدر سابق ص 102.
٢- موسوعة المدينة. مصدر سابق ص 17.
٣- هنري. مصدر سابق ج 1 ص 41.
٤- هنري. مصدر سابق ص 24.
٥- موسوعة المدينة. مصدر سابق ص 67-68.

لمنع تسرب الرطوبة ولحفظها من القوارض، كذلك استخدم القير لمثل هذه المهمة إضافة إلى استعماله في البناء بشكل عام[1].

6- ومن الأمور المهمة عمرانياً واجتماعياً والتي عثر عليها في تنقيبات تل الصوان هو ذلك السور المحيط بالمستوطنة الذي دلت عليه نقاط تنقيبية، والذي كان بعرض 2.5م وعمق 3م. وقد دل إنجازه على وجود جماعة مستقرة فعلاً (فكرت وخططت) في حماية مستوطنتها والدفاع المنظم عنها، فأنشئ هذا السور (الموضح لاحقاً في الشكل 17) ومن جهة أخرى فإن إنجاز هذا السور يشير إلى حالة من التعاون الجماعي الكبير لإنجاز مثل هذه الدفاعات[2].

العناصر الوظيفية وأثرها في تركيب وشكل القرية العراقية القديمة:

منذ أن اتخذ الإنسان العراقي القديم القرى العراقية مستقرات دائمة كانت ترتبط نشأتها واستمراريتها بالعامل الاقتصادي المتمثل بممارسة الزراعة والرعي، وكانت الوظيفة السكنية أبرز العناصر الوظيفية في تلك القرى، وقد احتلت تلك الوظيفة المساحة العظمى من موضع المستوطنة واتخذت أشكالاً متنوعة من التجمع، لذلك يمكن تمييز العناصر الوظيفية للقرية على النحو التالي:

1- الوظيفة السكنية في القرية العراقية:

وهي أول وظيفة للقرية التي صارت أشكالها وطريقة انتشارها تعكس شكل وتركيب تلك القرى وأداءها الوظيفي (البنية الوظيفية)، لذا أمكن تمييز عدة أشكال لهذه القرى منها:

أ- قرى بدائية ينتابها ضعف في التماسك الاجتماعي، وذات نمط اقتصادي مغلق مكتف ذاتياً عَبَّر عنه نمط الأبنية السكنية التي تبعثرت في المستوطنة بأشكال لا اتجاهية، سادتها البدائية في أساليب البناء وموارده وجعلتها غير قادرة على تحقيق أشكال منتظمة للبناء السكني، كما في قرية جرمو الأولى وما عاصرها من قرى، حيث ظهرت فيها تلك الأنماط من الأبنية السكنية ذات التوزيع المتناثر (العشوائي) وباتجاهات مختلفة.

١- المصدر السابق ص 67.

٢- موسوعة حضارة العراق. مصدر سابق ج 1 ص 127.

ب- قرى ذات تجمع سكني حول مساحات وسطية عكس نمطها السكني هذا توسعاً كبيراً في بنية القرية من جهة وأعطى إدراكاً واضحاً لمعنى الفضاءات المعمارية space وأثرها في سهولة الحركة من جهة أخرى accessibility. وقد ظهر هذا النوع من التجمعات السكنية لأول مرة في قرية أم الدباغية الطبقة الثانية (شكل رقم 14)، حيث توزعت الأبنية بشكل طولي متكونة من عدة غرف مربعة الشكل تقريباً انتظمت حول ساحة وسطية مرفوعة باللبن.

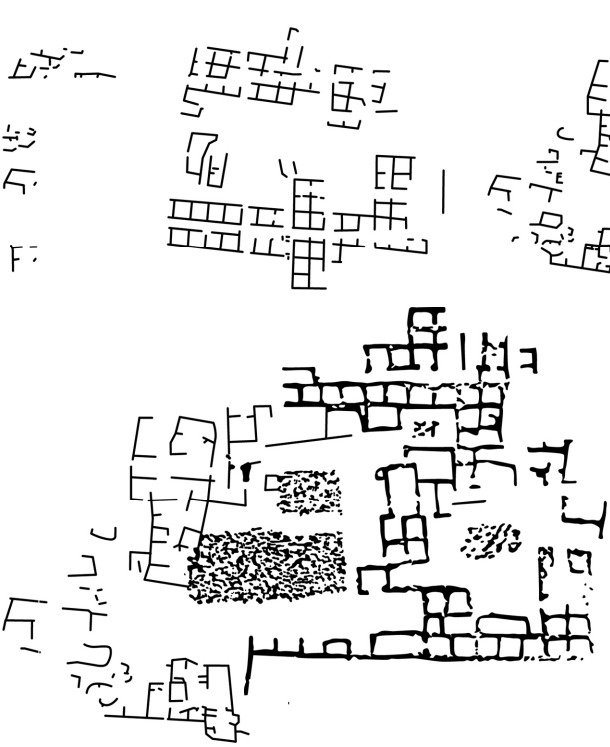

شكل 14: أم الدباغية الطبقة الثانية. التجمع حول ساحة وسطية (جورج 1986)

وكان هذا التصميم من الوحدات السكنية قد أشاع نوعاً من الخصوصية لكل تجمع سكني حول ساحة إضافة إلى تحقيق نوع من أساليب الدفاع الذاتي لهذه التجمعات، ومثل ذلك النمط وجد واضحاً في تل الصوان ط 3 (شكل 15) وهذا يعني بروز وظيفة أخرى ضمن القرية حققها هذا النمط من التجمعات السكنية هي وظيفة الفضاء وما يحققه من سهولة الحركة، كذلك يحقق الوظيفة الدفاعية إضافة إلى السكن.

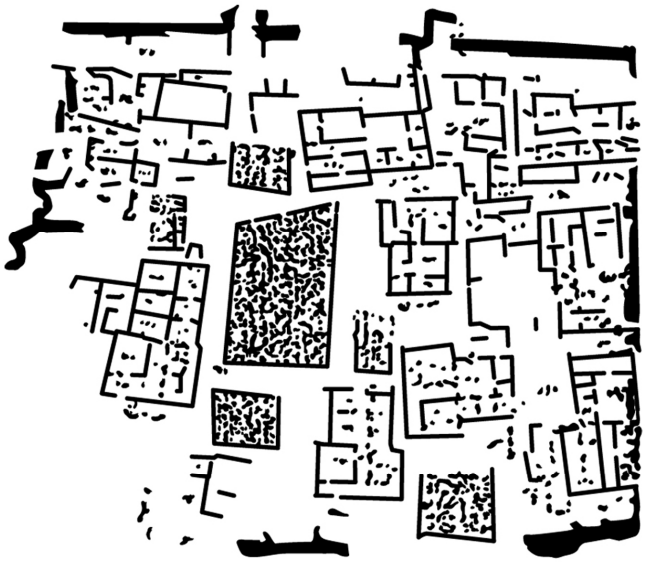

شـــكل 15: تل الصوان الطبقـــة الثالثة - الباحث عن أبـــو الصـــوف 1968- يوضح التدرج فـــي الفضاءات من الأوسع إلى الأقل سعة (نوفل هندي 1990)

ج - ظهور قرى ذات تجمع سكني متعامد، وقد ظهر هذا النوع من القرى نتيجة الجمع بين الشكل العفوي لانتشار الأبنية السكنية والشكل المتجمع حول ساحة وسطية، حيث يلاحظ نمطان من الأشكال السكنية أولهما أن الأبنية السكنية أخذت شكل تجمع حول الساحة الوسطية، وقد تكون من شكل مستطيل ومقسم إلى عدة غرف مربعة أو مستطيلة، وثانيهما أن ذلك الشكل أو النمط من الوظيفة السكنية تكرر في عدة اتجاهات متخذاً من ساحة وسطية كبيرة نسبياً (أكبر من تلك التي بين الدور السكنية) بؤرة يتفرع منها وبشكل عفوي في عدة اتجاهات النمط الأول من الوظيفة السكنية وهو ساحاته الأصغر عن الساحة المركزية الكبيرة.

وقد أعطت قرية تل الصوان مثالاً حيوياً على شكل ووظيفة هذا النوع من التجمعات السكنية ولا سيما الطبقة الثالثة رغم أن بوادر تلك الأشكال ظهرت في الطبقة 1 و 2 عندما كانت الأبنية السكنية تستخدم الشكل المستطيل والمقسم إلى عدة غرف، وعندما اتخذت الوحدات السكنية الشكل T في ط3 وحقق تعامدها نوعاً من المرونة في تشكيل الوحدة نفسها وفي خلق فضاءات ضيقة صارت تستعمل كأزقة لتسهيل إمكانية الانتشار في جميع الاتجاهات، وتحقيق مبدأ التدرج الفضائي الأوسع ابتداء من فضاءات الوحدات السكنية ففضاء الساحة الوسطية بين الوحدات السكنية وصولاً إلى الساحة المركزية الكبيرة المؤدية إلى كل الاتجاهات وبالعكس.

وبذلك تكون منطقة الساحات المفتوحة أحد المراحل الأساسية (الأصيلة الجذور) في تشكيل المفهوم الفضائي في نسيج المستوطنة[1].

2- ظهور شبكة الطرق كعنصر وظيفي في تركيب القرية وتشكيلها:

من المؤكد أن ممرات الحركة أو الطرق تظهر عبر نمط الأبنية السكنية لأيّ مستوطنة حيث تؤدي أشكال الانتشار المتنوعة للأبنية السكنية وباقي استعمالات الأرض الأثر الكبير في تحديدها وأنماطها، لذلك يمكن تلمس جميع أنواع الطرق عبر مسيرة القرية العراقية: بدأت بالممرات غير المنتظمة وعلى شكل مسالك عندما كانت بسيطة وذات نمط متناثر من الأبنية كما في جرمو، ثم ما لبثت أن ظهرت الأزقة غير المنتظمة التي تتوسط المساكن الصغيرة والكثيرة العدد، ثم صار بينها ذلك النمط من الطرق غير النافذة التي تعرف الآن (cull de. Sac) إضافة إلى الطرق الواسعة التي صارت تقع عليها المساكن الكبيرة والأبنية العامة، وربما تشكلت تلك الأنماط الثلاثة في قرية تل الصوان التي يعكسها الشكل (رقم 16) كما عرفنا.

١- هنري مصدر سابق. ص 38.

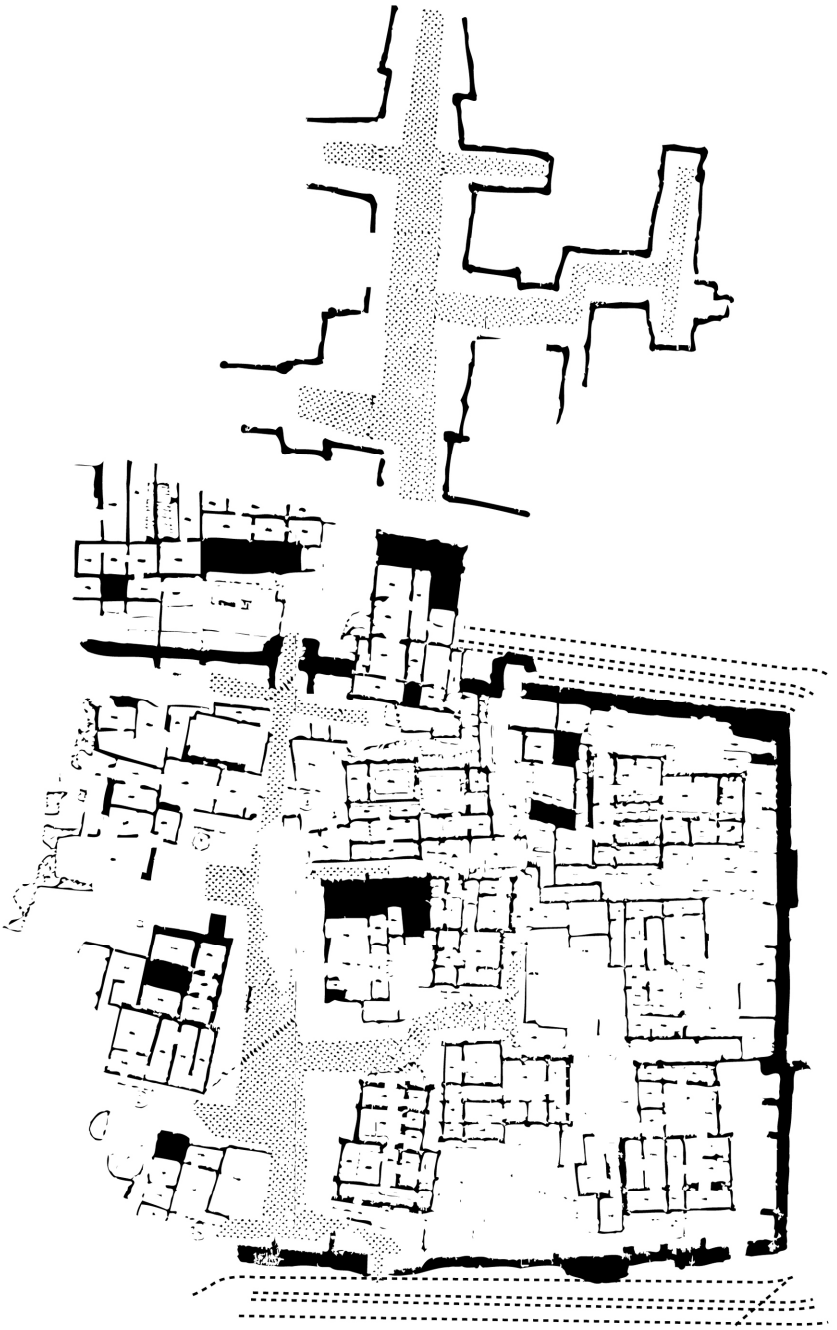

شكل 16: تدرج الشوارع والأزقة والطرق غير النافذة (نوفل 1990)

3- الوظيفة الأمنية:

ظهرت في قرى العراق القديم في مستويين الأول حماية الفرد وأسرته وقد تحقق عن طريق الوحدات السكنية نفسها، والثاني على مستوى المستوطنة والقرية ممثلاً بالمواقع الحصينة للمستوطنات التي كانت تقع عند حافات وسفوح الجبال كجرمو ونمريك، أو على التلال المرتفعة كبارم تبه أو عند شرفات الأنهار والجبال معاً كقرية نمريك، حتى انتهى الأمر بإنشاء الأسوار أو الخنادق المحصنة كوسيلة لحماية مجتمع القرية ككل فكان السور الخندقي الذي وجد محيطاً بمستوطنة تل الصوان (شكل رقم 17).

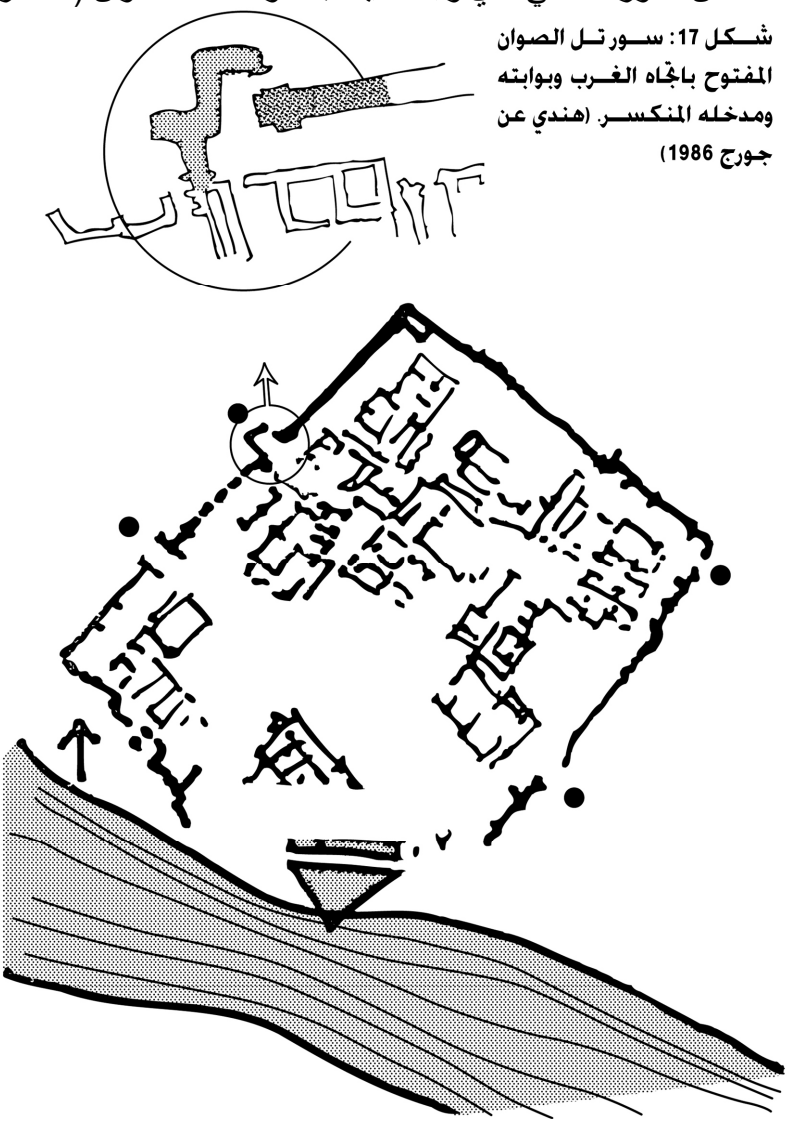

شكل 17: سور تل الصوان المفتوح باتجاه الغرب وبوابته ومدخله المنكسر. (هندي عن جورج 1986)

4- وظيفة الخزن:

تمثلت هذه الوظيفة في ظهور المخازن التي كانت بشكل متواضع في القرى الزراعية الأولى لا تعدو كونها مواضع تحت الأرض وقرب المساكن، تضم جرار فخارية تحوي على الحبوب يوم كان اقتصاد القرية يوصف بالاكتفاء الذاتي كالذي عثر عليه في بارم تبة.

إلا أن هذه المواقع المخزنية صارت تخصص لها أبنية جماعية كمستودعات للتصدير كالتي عثر عليها في أم الدباغية[1] رغم وجود بعض أبنية متخصصة كمخازن ضمن الوحدات السكنية كالتي وجدت في أبنية تل الصوان شكل (رقم 18).

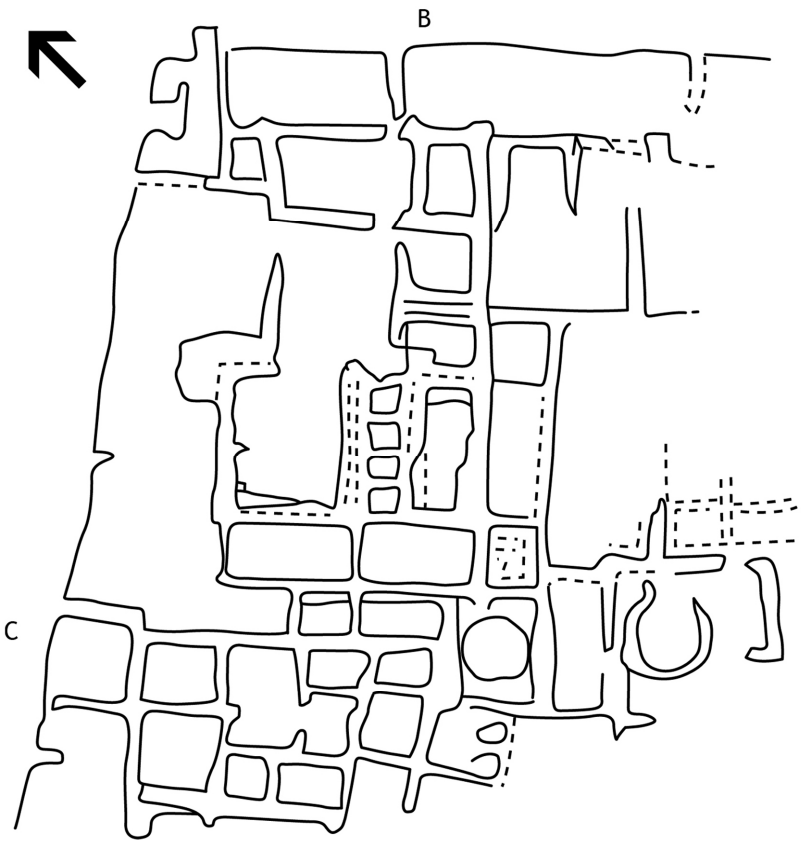

شكل 18: مخازن في تل الصوان/ عصر سامراء (سليمان 1976)

١- هنري. مصدر سابق. ص 40.

الخلاصة:

نستطيع القول إن المنطقة السكنية، وشبكة الطرق، والأسوار، والمخازن إضافة إلى الأماكن التي يعتقد بأنها كانت تؤدي وظيفة دينية، هي أهم استعمالات الأرض التي كانت تعكس العناصر التخطيطية التي وجدت مكانها ضمن نسيج القرية لتؤدي الوظائف المسندة إليها وبالتالي إعطاء التركيب (البنية الوظيفية) للقرية.

أما شكل القرية العراقية القديمة فقد ظهر في واحد مما يأتي:

1- الشكل غير المنتظم، وقد ظهر في المراحل الأولى لنشوء القرية يوم كانت الأبنية متناثرة وتعبر عن الضعف في التماسك الاجتماعي وبداءة أساليب البناء وعدم قدرتها على تحقيق أشكال منتظمة وبالتالي شكل القرية كما في جرمو.

2- الشكل الدائري أو شبه الدائري للقرية والذي جاء تعبيراً عن التآلف الاجتماعي لسكانها وإدراك الإنسان لكفاءة ذلك الشكل في تحقيق إمكانية السيطرة على كافة الاتجاهات بما يؤمن حماية المستوطنة ولا سيما وأن الأسوار لم تكن قد عرفت بعد. وقد ظهر ذلك في معظم قرى ما بعد جرمو.

3- الشكل الرباعي المنتظم للقرية، وقد ظهر هذا الشكل في المراحل اللاحقة لتكوين القرية كما في تل الصوان وكان ذلك نتيجة التفكير بالجانب الاجتماعي والأمني للفرد والمجتمع، ونتيجة تطور أساليب البناء ومواده وظهور الأشكال الهندسية في شكل وانتشار الأبنية.

العصر الحجري المدني وظاهرة انتشار القرى الزراعية في شمال وجنوب العراق (5000-3000ق.م):

شمل هذا العصر الفترة التي سبقت الألف الخامس بقليل، والتي وصل فيها انتشار القرى الزراعية إلى أقصى المناطق الجنوبية لمنطقة الجزيرة الممتدة بين نينوى وبغداد. فكانت قرى سامراء وتل الصوان (6000-5000ق.م) شمال بغداد للأسباب والدوافع التي عرفناها، ليحل هذا العصر الذي صار يسمى اليوم بتسميات شتى تبعاً للظواهر المميزة التي حدثت فيه، والتي أينعت ببزوغ فجر الحضارة المدنية بحدود 3000ق.م. فإذا كانت تسميته بالعصر الحجري المعدني قد عرفت، فإن البعض راح ينعته بالعصر شبه التاريخي لأنه تمخض في النهاية عن ولادة العصور التاريخية التي بدأت في الألف الثالث بعصر سومر في الأرض التي ضمت قبل ذلك فترات وأدوار متعددة من حضارات هذا العصر والتي سارعت في خطوات عصر ما قبل التاريخ نحو نهايتها التاريخية، والعصر الذي شهدت نهايته ميلاد الحضارة المدنية المتمثلة

بظهور المدن الطلائعية في جنوب العراق، حيث يعد ظهورها خاتمة العصر القروي المنفرد بالظاهرة الاستيطانية من جهة والتي لازم ظهورها اختراع الكتابة من جهة أخرى. فلا غرابة في أن تكون جذور هذا الاختراع قد ظهرت في هذا العصر وأنها برزت في أحد أدواره الذي صار (يسمى بالدور شبه الكتابي)، والذي تعود إليه جذور الثورة الثانية في حياة البشرية المتمثلة بالثورة الحضرية وبدء الحياة المدنية، لذلك كانت فترة ذلك العصر الممتد بين (5000-3000ق.م) سريعة التغير لكثرة العوامل المؤثرة وبالتالي الخصائص التي حملتها قرى ذلك العصر في طبقاتها الحضارية قياساً بتغيرات العصور الحجرية السابقة. ويبقى أهم تلك الخصائص الانتشار القروي الممتد جنوباً ليصل في بداية الألف الرابع إلى القسم الجنوبي من العراق وليغدو ذلك القسم مركزاً للنمو الحضاري بالإضافة إلى الشمال ممهداً الطريق لوحدة حضارية كاملة لأرض وادي الرافدين تحققت فعلاً في الحقبة التاريخية. وهكذا وأمام الوجود الحضاري في شمال العراق في بداية العصر الحجري المعدني (5600ق.م) ووجوده في أقصاه الجنوبي الذي امتد حتى العصور التاريخية (3000ق.م) فقد قسم ذلك العصر إلى عصور ثانوية تميز كل منها بتجمع حضاري خاص يسمى باسم المكان الذي تم فيه تشخيص هذا التجمع لأول مرة. هذه الأدوار وفق تسلسلها الزمني[1]:

1- عصر حلف (5000-4200ق.م)
2- عصر العبيد (4200-3800ق.م)
3- عصر الوركاء (3800-3500ق.م)
4- العصر شبه الكتابي (3500-3000ق.م) عصر جمدة نصر والوركاء الأخير (عصر المدن الطلائعية).

وإذا تتبعنا الخصائص الحضارية لهذه العصور سوف نتلمس بشكل جلي التطورات الدينية والاقتصادية والعمرانية، التي برزت جراء تأثير بعض العوامل المناخية والإقليمية التي سادت عبر فترات تلك العصور وأثرت في تركيب وخصائص القرى الاستيطانية آنذاك.

قرية الأربجية وخصائص عصر حلف:

- يمثل عصر حلف الفترة الأولى من العصر الحجري المعدني "العصر شبه التأريخي" الذي شهد انتشار نوع من القرى الزراعية في

١- فترات هذا العصر حددت حسب اتفاق معظم علماء الآثار والمؤرخين أمثال ساكز وسيتون و د. أحمد سوسة. والأستاذ طه باقر والدكتور وليد الجادر وتقي الدباغ وغيرهم. أما أسماء الأدوار الحضارية لما قبل التاريخ في سومر (العبيد أوروك. جمدة نصر) فقد أقرها المؤتمر الذي عقد في لندن عام 1931. (عن أونس ص 102).

المنطقة الشمالية من العراق تحمل خصائص ذلك العصر الذي اكتشفت معالمه الحضارية لأول مرة في العراق في مستوطنة زراعية تقع في منطقة العين السورية عند الحدود التركية في الموقع المسمى (تل حلف[1]) ففي مجموعة من القرى التي نقب فيها البرفسور م. ي. ل ملوان كالأربجية ونينوى وقرى أخرى تم وضع فترة حلف في مكانها التاريخي المناسب الذي تم اتفاق علماء الآثار والمؤرخين على اعتباره يمتد في الفترة الواقعة بين (5000-4200ق.م) وتم إعطاء صورة متكاملة تقريباً لمحتوى تلك الفترة وجوانبها الحضارية التي قدمت خصائص عمرانية واقتصادية جديدة تميزت بها. فعلى الصعيد العمراني: شهدت قرى هذا العصر طرازاً من الأبنية العمرانية لم تكن تألفه من قبل، حيث ضمت أبنية مدورة ذات مداخل مستطيلة الشكل نسبياً وقد شيدت تلك الأبنية ومداخلها على أسس حجرية، ويعتقد أن تلك الأبنية كانت مسقوفة بقباب معقودة قطرها يتراوح بين 5-19م[2]، كما في الشكل (19). فبدت وكأنها خلايا نحل، وقد بنيت باللبن وعرفت باسم الثولوي (مفردها ثولوس) ولم يكن وجود تلك الأبنية يلغي بناء دور السكن ذات الطابع والحجم القروي الذي كان مألوفاً سابقاً كما في حسونة وغيرها، إلا أنها كانت أكبر مساحة وأفضل بناء بسبب نظامية الشكل ومواد البناء التي استخدم فيها لأول مرة الآجر الطيني المشوي الشبيه بالطابوق الذي يعتقد أنه جلب إلى الأربجية من حوض نهر الخابور، كما في بناء دور سكن حلف نفسها. كذلك اكتشف في الأربجية وجود الشوارع المرصوفة بالحجارة التي كانت تصل بين المنازل مما يشير إلى نوع من الخدمة العامة[3] التي لم تخل طبقاتها الخمس أيضاً من ذلك النمط من الأبنية المدورة (الثولوي) بواقع اثنان في كل طبقة مما يعني أنها حوت صفة ذلك العصر عمرانياً، ولذلك فإن وجود تلك الأبنية في قرى عصر حلف العراقية ومثلها في بلاد اليونان (في مايسيناي) وقبرص وجزيرة كريت أثار عدة آراء وطروحات لتحليل الشكل والدور الوظيفي لهذه الأبنية[4] فراح فريق من الباحثين لا يعتبرها في العراق سوى دور سكن، وأنها ربما شيدت بهذا الشكل لإعطاء مرونة للشكل المستطيل "المألوف سابقاً والذي استمرت تلك الأبنية تبدأ به" لكي يأخذ فضاءً أوسع يدركه المرء عبر تدرجه الفضائي وهو داخل من الشكل المستطيل إلى الشكل المدور تحت القباب، مما يعطي

١- اكتشف موقع حلف من قبل عالم الآثار الألماني ماكس أوبنهايم قبل ظروف الحرب العالمية الأولى بقليل تحت قصور أحد الملوك الآراميين الذين حكموا في القرن العاشر ق.م بشكل طبقة سميكة من الآجر المصنوع بأسلوب جميل ولم تنشر التنقيبات إلا عام 1931.

٢- موسوعة حضارة العراق ج 1 ص 134.

٣- جورج رو. مصدر سابق. ص 92.

٤- موسوعة العراق في التاريخ. مصدر سابق ص 57.

إحساساً بعدم هيمنة الكتل البنائية عليه ولهذا وجدت تلك البنية في العراق في مواقع مختلفة فوق مستوى الأرض، على خلاف مثيلاتها في اليونان وقبرص، بينما اعتبرها بعض الباحثين مجرد محطات لاستضافة الغرباء الوافدين لا سيما أن قرية حلف نفسها كانت على طريق يربط الشرق وبلاد فارس عند بلاد الشام مع البحر الأبيض المتوسط وهي أقرب ما تكون اليوم إلى المضايف التي لا تزال في جنوب العراق بشكلها المعروف الجمالي ووظيفتها المعدة للضيافة والمكان الذي يجتمع فيه وجهاء القرية عندما يراد تدبير أمر مهم. وعلى هذا الغرار رجح هؤلاء الباحثون أن يكون دور الثولوي كأماكن عامة أو مجالس مدينة يجتمع فيها سكان القرية عند حاجاتهم لاتخاذ قرار[1]. أما الفريق الثالث فزعم أنها معابد دينية أو مراقد على اعتبار أنها كانت في اليونان وقبرص مقابر عبر ما عثر فيها من عظام لمواد النذور. وفي كل الأحوال فإننا نرى بأن وجود مثل تلك الأبنية في قرى عصر حلف العراقية كالأربجية وغيرها وعبر عددها القليل وموقعها المركزي ودرجة العناية في بنائها لم تكن سوى أماكن للسكن الخاص وأماكن مركزية عامة.

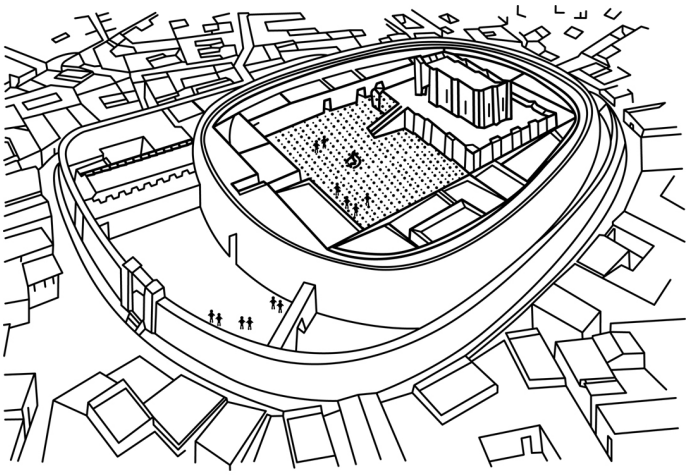

شكل 19: أبنية مدورة ذات مداخل مستطيلة الشكل نسبياً وقد شيدت تلك الأبنية ومداخلها على أسس حجرية

وفي **الجانب الاقتصادي**: لم تخرج قرى عصر حلف عن أساسها الاقتصادي المعتمد على الزراعة والرعي إلا أن الزراعة صارت تنتشر في مساحات أكثر اتساعاً[2].

١- رو. د. جورج. مصدر سابق. ص 93.
٢- ساكز. مصدر سابق ص 33.

فنتجت عنها غلال أكثر وغدت المحاصيل الزراعية تفيض عن الحاجة للمتاجرة بها مع بلاد الأناضول وأرمينيا وأفغانستان مقابل الأحجار الكريمة والزجاج البركاني. إضافة إلى ذلك فقد عثر في منطقة شمال غرب العراق في الطبقة التي تعود إلى دور حلف على قواقع محارية لابد وأن أصلها كان من الخليج العربي، لذلك لم تعد قرى عصر حلف توصف بالاكتفاء الذاتي، حيث صار هناك نشاط اقتصادي آخر هو التجارة مما أشاع جواً من الانفتاح الاقتصادي بين قرى عصر حلف ومناطق أخرى من العالم كيف لا وقرية حلف نفسها ومثلها الأربجية وباقي القرى الأخرى في جزيرة العراق تقع على الطريق التجاري الذي يربط شرق آسيا وبلاد فارس مع الغرب ممثلاً ببلاد الشام وجزر سواحل البحر الأبيض مروراً بقرى نهر الخابور (براك. شفر بازار. حلف) ونهر البليخ (تل أسود) ثم نهر الفرات عند كركميش (جرابلس) بسوريا، ثم جزر البحر المتوسط كقبرص (خيروكيشيا) وكريت (سهل مسارة) والجزر البلوبونزية (معينا) التي وجدت فيها معظم مميزات حضارة حلف ابتداء بالعمارة الثولوية والصناعات الحجرية والمعدنية والفخارية، مما يدل على التواصل والتأثير بين قرى عصر حلف في سوريا والعراق مع تلك الأصقاع ليس العكس[1].

أما عن النشاط الصناعي في قرى حلف، فقد دلت المكتشفات الأثرية في قرية حلف على وجود كميات كبيرة من الأشكال المتنوعة المصنوعة من حجر الاستيتايت (حجر صابوني هش) عملت بشكل قلائد، كذلك عثر على أنواع من الأقراص الحجرية مثقوبة من الخلف ومتقاطعة أحياناً ومنقوشاً عليها بخطوط مستقيمة استخدمت في طبع أختام السدادات الطينية على الجرار والسلاسل، وهي بذلك أقرب ما تكون إلى الأختام المنبسطة التي ظهرت في الوركاء والتي سبقت ظهور الأختام الأسطوانية وكان استخدامها في الأربجية وقرى عصر حلف للدلالة على الملكية بعد أن نشطت التجارة. وكأول ملامح العصر الحجري المعدني وإلى جانب الصناعات الحجرية عرف سكان قرى عصر حلف المعادن التي كان أولها النحاس[2] الذي يمكن أن يكون قد شوهد لأول مرة عند معالجة الصناعات الفخارية على النار، ولكن هذا غير مؤكد مثلما لم يتم التأكد من صورة العربة ذات العجلات التي عثر عليها مرسومة على آنية تدل على استخدام سكان حلف للعربة وأنهم صنعوها فعلاً[3]. ومع كل هذا التطور في النشاط الصناعي تبقى الصناعات الفخارية هي الأبهى والأروع، مما أنتج عصر حلف صناعياً بل وأبرز معالم الحضارة الاقتصادية وفي هذا يقول جورج رو (بوسعنا القول من دون مبالغة أن فن السيراميك قد بلغ أثناء فترة حلف درجة من التطور لم تبلغ في

١- رو، د. جورج المصدر نفسه ص 95.

٢- حيث عثر على نصل نحاس في الأربجية (جورج رو. ص 583).

٣- ساكز. مصدر سابق. ص 33.

وادي الرافدين من قبل أو فيما بعد أبداً[1] فقد كانت الصناعات الفخارية في عصر حلف ولا سيما في الأربجية في غاية الانتظام في الشكل على الرغم من عدم استعمال دولاب الفخار بعد مما يعني مهارة الصناعة اليدوية وقدرة عالية على إكسابها أبهى وأروع النقوش والزخارف الملونة، التي ظهرت بأشكال متعددة ومتطورة أثارت كثيراً من التساؤل حول أصولها التي وصفت بأنها إيرانية أو إغريقية جاءت من جزر اليونان قبرص وربما من سوريا. وللرد بما يثبت أصالة الإنتاج المحلي لهذه الفخاريات نجد أن صناعتها تبدأ بقرية الأربجية نفسها ثم قرية نينوى وفي الأدوار الأخيرة لقرية حسونة ممزوجاً مع فخارها المميز ليستمر وجوده غرباً في جميع القرى على الطريق بين قرى العراق الحلفية وصولاً إلى قرى سوريا عند نهر الفرات وانتهاءً بالجزر الإغريقية مع وجود الآلهة الأم (المعبود الأول في أرض وادي الرافدين) مما يؤكد توجه تلك الصناعات من الشرق العراقي باتجاه الغرب وليس العكس، حيث لم تكتشف التنقيبات الأثرية أي أثر لحضارة حلف في إيران[2].

أما عن معتقدات قرى عصر حلف فقد استمر الإله الأم رمزاً للخصوبة والإنتاج الذي عثر على تماثيله الحجرية، وقد اتخذ هذه المرة هيئة أخرى تمثلت في وضع القرفصاء (كما يصورها الشكل رقم 2). وهناك رأي حول صيرورة ذلك الإله بهذا الشكل كتعويذة تستخدم ضد مخاطر العقم أكثر من كونها صورة للإله الأم لا سيما وأنها عملت بحجم يسمح بحملها على شكل أوسمة أو باجات زينة[3]. كذلك دلت الآثار التنقيبية على اعتقاد سكان عصر حلف بحياة ما بعد الموت عبر ما عثر عليه من أوان وحلي وآلات دفنت مع أمواتهم لكي يستخدمها المتوفى بالعالم الثاني[4].

عصر العبيد وظهور القسم الجنوبي من العراق كمركز حضاري:

بعد فترة ازدهار حضاري استمرت عدة قرون جاءت حضارة حلف إلى نهايتها المفاجئة وهي ما تزال في قمة عطائها، بل وليأفل (وإن لم يكن كلياً) نجم حضارة كانت جذورها تمتد في أعماق الماضي السحيق واستمرت في شمال

١- المصدر نفسه. ص 94.
٢- ساكز. مصدر سابق ص 32.
٣- رو، جورج. مصدر سابق. ص 94.
٤- ساكز. مصدر سابق ص 43.

العراق لتحل محلها حضارة من العصر نفسه ولكن من موقع آخر من العراق لم يكن مأهولاً. تلك هي حضارة العبيد التي استمدت اسمها من موقع صغير يبعد قرابة 8كم (قرابة 5 ميل) غرب أور يعرف (تل العبيد tell alubaid) عاشت في ربوع تلك المنطقة وما جاورها أربعة أدوار حضارية تعد من أهم فترات العصر الحجري المعدني لأنها شكلت المرحلة الانتقالية بين القرى الزراعية المتطورة وطلائع المدن التي بدأت في السهل الجنوبي وتلك المدن التاريخية المشهورة كأور وأريدو ونيبور والوركاء ولجش وغيرها، والتي قامت فوق بقايا قرى دور العبيد كما تشير إلى ذلك التحريات الأثرية التي تمت في هذه المدن والتي عثر فيها على فخار العبيد[1]. ومن جهة ثانية فإن فترة ذلك العصر تكتسب أهميتها الكبيرة لأنها ولأول مرة تجعل جنوب العراق مركزاً للنمو الحضاري إضافة إلى الشمال، مما مهد السبيل لجعل وادي الرافدين وحدة حضارية صارت فيما بعد وحدة مكانية وسياسية بعد العصر السومري (عصر السلالات، أو دويلات المدن) وعلى الرغم مما في تلك الجوانب من أهمية لعصر العبيد فإن جانباً آخر كان قد برز وأسهم في تنامي ذلك العصر منذ نهاية العصر الحجري الحديث وهو انتشار القرى الزراعية الذي ظل ينحدر نحو الجنوب بعد حسونة وتل الصوان حتى وصل إلى أريدو في أدوار عصر العبيد: يقدم موضع أريدو بشكل متميز عن باقي مستوطنات السهل الرسوبي القديمة وحدة متكاملة لأدوار عصر العبيد بمجموعها بشكل عام وقد أعطت أقدم الآثار للمستوطنات السومرية بشكل خاص، ففي هذا الموقع الذي يبعد قرابة 25كم جنوب أور الذي عرفت أطلاله باسم (تل أبو شهرين) كشفت أعمال التنقيب[2] الأثرية عن وجود تسع عشرة طبقة سكنية مثلت

١- باقر "طه" مقدمة في تأريخ حضارات العراق القديم مصدر سابق ص 225. كان المنقب هـ. هو أول من استطاع تعيين موقع تل العبيد عبر مشاهدته المنصة المشيدة من الطابوق التي بني فوقها المعبد السومري في ذلك الموقع الذي وصله بعد بعثة كامبل نومبس والتي نقبت في أور وأريدو من قبل.

٢- نقصد بها أعمال التنقيب التي قامت بها مديرية الآثار العامة للفترة بين عامي 1946-1949، وعبر ثلاثة مواسم تحت إشراف المرحوم فؤاد سفر ومفتش الآثار العراقية آنذاك سيتون لويد. علماً بأن المنقب الجيولوجي الإنكليزي لوفتس w k loftas كان أول من اكتشف أطلال الموقعين أور وأريدو عام 1852، ولم يستطيع تحديد ماهية الموقعين ثم أعقبه تايلر عام 1854، حيث أعد خريطة بموقع أريدو وساعده في التنقيب الإنكليزي رولنس وذكر إنها المدينة نفسها التي ذكر اسمها في العهد القديم، ثم قام كامبل تومنس عام 1918 بالتنقيب في أريدو وأور لحساب المتحف البريطاني إضافة إلى بعثة

الفترة الممتدة بين الاستيطان المبكر في أريدو وحتى نهاية القرن الخامس ق.م وقد تبين أن أقدم استيطان فيها بدأ بالطبقة 19 التي لم يعثر فيها على أيّ مبان، مما يشير إلى أن طلائع القرويين في أريدو سكنوا الأكواخ التي ربما بنيت من قصب البردي.

وهذا ما يتماشى مع الفكرة التي كانت تسود الأوساط العلمية منذ 1924 حيث إن أقدم الذين استوطنوا جنوب العراق سكنوا في أكواخ من القصب، وعاشوا من صيد الأسماك والطيور في حياة بدائية[1] أسموها بدايات عصر العبيد غير أن الطبقات التالية التي كشفت عنها التنقيبات الأثرية أظهرت أن أسلاف أولئك الأقوام كونوا لهم حضارة اختصت بمعتقدات ونظام اجتماعي واقتصادي وعمراني متميز أسموها بحضارة أريدو التي ضمت أدوار عصر العبيد الأربعة، والتي أمكن الكشف عنها وتمييزها عن طريق أنواع الفخار المتميز لكل دور، وعن طريق تلك الأبنية التي ظهرت لأول مرة في تركيب القرى الشمالية والجنوبية، وتمكن المنقبون من التعرف عليها بكل دقة وثقة والتأكد من كونها أعدت لأغراض دنيوية[2] عرفت بالمعابد temples وصار وجودها أمراً شائعاً في معظم طبقات أريدو وجميع مستوطنات القسم الجنوبي من العراق كتغير رئيس للفكر التجريدي والشعور الديني[3]. ولقد شكل وجود المعابد في طبقات أريدو ضمن المنطقة المسماة بحارة المعابد superimposed temple دليلاً كافياً أمكن عن طريقه تمييز الطبقات التالية كأدوار لعصر العبيد وهي:

1- الطبقات (18-15 من الأسفل) مثلت دور العبيد الأول "دور أريدو" والمعابد الأولية التي وجدت بقاياها بشكل أبنية بسيطة مربعة الشكل تتراوح أضلاعها بين 2.5م بالنسبة لمعبد ط 17 و 3.5 بالنسبة لمعبد ط 16، بينما أصبح معبد ط 15 مستطيل الشكل أبعاده 4-7م وجميع تلك المعابد تتجه زواياها نحو

مواطنة د. هول عام 1919 وقد جرت التنقيبات في ظروف صعبة جداً.

١- سوسة. د. أحمد "حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين" منشورات وزارة الثقافة والإعلام. دار الرشيد للنشر. بغداد 1980. ص 98.

٢- أوتس. مصدر سابق. ص 245.

٣- المصدر نفسه ص 245.

الاتجاهات الرئيسة الأربعة التي يعكس تخطيطها الشكل (20). وقد ضمت تلك البنية العناصر الرئيسة للمعابد المبكرة التي تمثلت[1] في:

أ- الجدران الأربعة التي حوت في امتداداتها على المرتفعات لتقوية الجدران من جهة ولتحديد مكان الخلوة Gella من جهة أخرى الذي برز بشكل تجويف (شبيه بالمحراب) أو مكان محصور بين طلعتين يكون على الأرجح في الضلع الشمالي الغربي.

ب- وجود دكة القرابين offering table وسط ساحة المعبد بينما اتخذت دكة المذبح alter صدر التجويف.

ج- إن بناء المعابد الثلاثة (17-16-15) شيد على ارتفاعات بسيطة من الأرض كانت نواة للمصاطب التي عرفت لاحقاً فمعبد ط 17 شيد بناؤه على أربعة جدران متوازية مقامة على الرمل مباشرة[2] بينما شيد معبد ط 16 (الذي بدا أكثر وضوحاً) على أنقاض معبد ط 17 الذي صار بمثابة مصطبة لهذا المعبد والذي صار هو الآخر مكاناً لتشييد معبد ط 15 فوقه، وهكذا بدت جميع المعابد وقد شيدت على أماكن مرتفعة نسبياً يرتقى إليها بواسطة الدكات الأمامية عند المداخل المقابلة للمحراب. وقد لوحظ على معبد 16 أنه قد بني من آجر طيني موشوري طويل مشابه إلى آجر موقع جوخة مامي (في سهل ديالى) وقد حوت تلك المعابد على فخاريات تشبه فخاريات ذلك الموقع أيضاً مما جعل خبراء الآثار يعتقدون بأن هناك صلة بين فخاريات هذا الموقع وفخاريات عصر أريدو الأول (فخاريات دور العبيد الأول) الذي تميز بكونه فخاراً متقن الزينة نوعاً ما مصقولاً ذا لون واحد شبيه بالأخضر (بني) وذهبوا إلى أكثر من ذلك عندما اعتبروا الحضارتين (حضارة جوخة مامي وأريدو) مشتقتين من أصل واحد ومثلوا تطوراً انتقالياً له وهذه إشارة إلى استمراريتهما من عصر سامراء وحلف، ومثل ذلك الفخار عثر عليه في العديد من المواقع القريبة من أريدو[3].

١- مهدي علي محمد "دور المعبد في المجتمع العراقي. من دور العبيد في نهاية دور الوركاء" رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى مجلس كلية الآداب جامعة بغداد. قسم الآثار 1975 ص 63-67.

٢- سفر، (فؤاد) ولويد (سيتون) حفريات مديرية الآثار القديمة العامة في أريدو، مجلة سومر م 4 1948 ص 282.

٣- اوتس. مصدر سابق. ص 252.

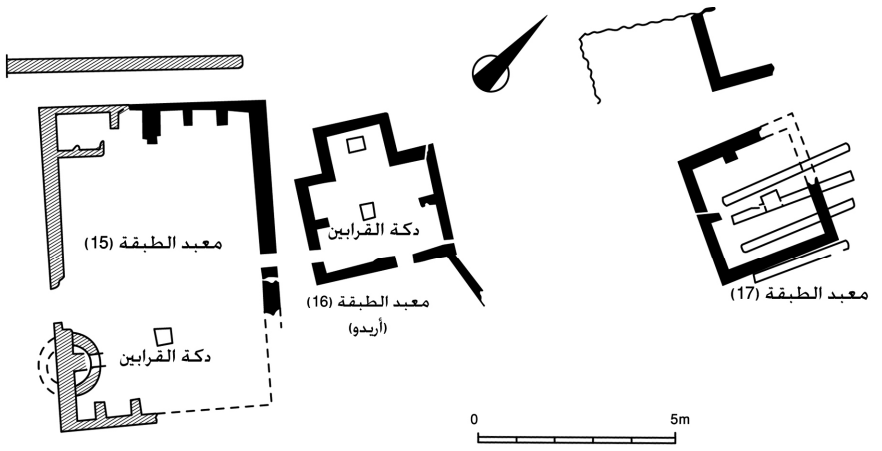

شكل 20: المعابد الأولية في أريدو (معابد دور العبيد الأول) (مهدي 1975)

2- دور العبيد الثاني مثلته الطبقات (14-12) من أريدو: والتي لم يستدل منها على المعابد، لأنها كانت بعيدة عن متناول الحفريات التنقيبية لوقوع معظم أجزائها تحت الزقورة، عدا مطبة من اللبن لم يتكامل بناؤها لتقوية الطبقة 14، أما الطبقتان 13-14 فأظهرت بقايا جدران متميزة تعود إلى معبدي هاتين الطبقتين حيث تغطى الأجزاء الباقية ببناء الزقورة[1]. وقد حدثت هذه الفترة لتقابل دور الموقع المعروف (قلعة حاج محمد) القريب من الوركاء جنوباً، والذي عثر فيه على فخاريات تشبه ما هو موجود في حسونة وحلف، امتازت بصناعة أفضل وتنفيذ أدق للتفاصيل الزخرفية التي سادها اللون الأسود، ومثل هذا الفخار وجد أيضاً في نيبور وفي منطقة مندلي شرق بغداد[2].

3- دور العبيد الثالث مثلته الطبقات (11-8) من أريدو: والتي أمكن تمييز بقايا معابدها 9-11 بشكل واضح ظهر من خلال مخططاتها (شكل 21). إنها متشابهة تقريباً كونها مستطيلة الشكل تتجه زواياها نحو الاتجاهات الرئيسة الأربعة عدا بعض التفاصيل في أبنيتها، ولا سيما معبد ط 8[3]. وقد أصبحت جميع تلك المعابد مشيدة فوق مسطبة يرتقى إليها بواسطة منحدرات ترابية (دكات).

١- سفر - لويد. مصدر سابق. ص 252.
٢- اوتس مصدر سابق ص 254.
٣- للمزيد من المعلومات عن مخططات وأبنية معابد ذلك الدور راجع أطروحة علي محمد مهدي: موسوعة دور المعبد في المجتمع العراقي ص 67-69.

وفي تلك المعابد عثر على الفخار المتميز ببساطته الزخرفية وتوفره بكميات كبيرة أمكن مطابقتها بالفخار الذي وجد منتشراً في مناطق واسعة من العراق مثلت حضارة عصر العبيد التي كانت توازي حضارة موقع تل العبيد نفسه، حيث لوحظ على فخارياته بأنها إنتاج عراقي أصيل غطى معظم المواقع الفراتية. وفي الشمال (فوق طبقات حلف) عثر عليه بشكل واضح وفي موقع جوخة مامي[1]، بل تعدى الأمر حدود العراق فوصل إلى مناطق مجاورة مثل إيران وسوريا والأجزاء الشرقية من شبه الجزيرة العربية[2].

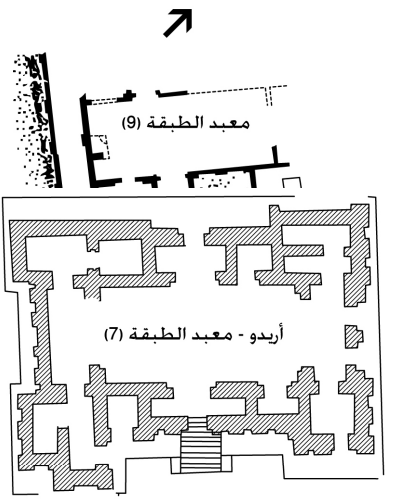

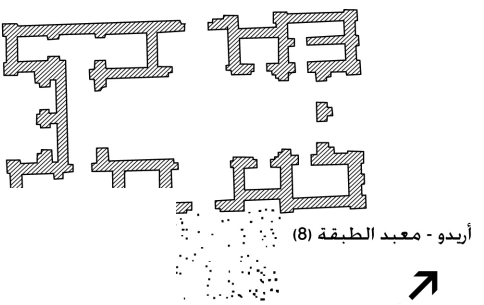

شكل 21: معابد دور الع
الثالث (مهدي 1975)

4- دور العبيد الرابع في أريدو: وقد ضمت آثاره الطبقات (7-6)، والتي كانت معابدها بداية لسلسلة من المعابد يتعذر تمييزها على الأغلب من حيث

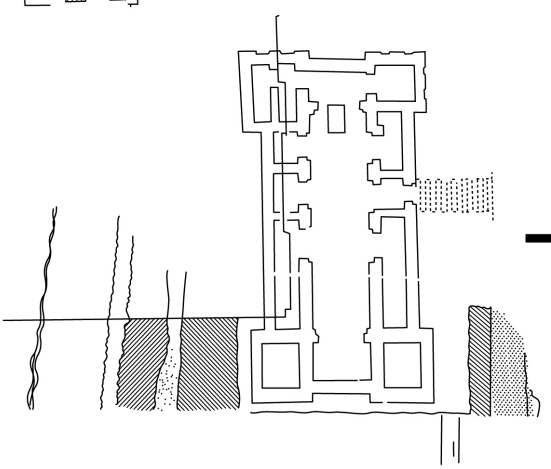

شكل 22: معبد دور العبيد الرابع (مهدي 1975)

١- اوتس. مصدر سابق. ص 254
٢- الدباغ. د. تقي "موسوعة حضـ
ثلاثة مواقع نقب بها السيد عبد
العراق ج 1 ص 138).

المفهوم والتصميم العمراني مقارنة بتلك المعابد السابقة لها أو الموجودة في دور أوروك أو تل القصر الموازية لها زمنياً (انظر شكل 22). وفي تلك المعابد عثر على بقايا قرابين من السمك توحي بأن لهذه المعابد علاقة بإله المياه (انكي) وهو المعبود الأعلى في أريدو عبر العصور اللاحقة. كذلك عثر في تلك الطبقات على الفخار البسيط المشابه لفخار أوروك المبكر، مع فخار آخر ذي خصوصية ولكن بكميات كبيرة أمكن اعتبارها متزامنة مع ابتكار عملية صنع الفخار في أوروك (الدولاب)[١].

بينما شكلت الطبقات (5-1) من أريدو بداية عهد جديد حملت معالمه الحضارية (ميلاد حضارة). نقلت قرية أريدو ذات الأدوار الأربعة لعصر العبيد لتجعلها بعد حين (مدينة city أشارت إليها الكتب السماوية[٢]، ودلت عليها مكانتها المقدسة).

فبعد أن مهدت ثقافة الطبقات (7-6) التي ظهرت فيها معالم ثقافة أوروك الأولى التي تقابل ثقافة الطبقات (20-17) في نفرو ثقافة موقع تل القصير[٣]، نجد أن حضارة الطبقات (5-1) من أريدو أصبحت تقابل حضارة الدور شبه الكتابي، ففي تلك الطبقات ومن زاوية التطور العمراني عثر على بقايا (6) بيوت استخدم في بنائها أو بناء أجزاء منها اللبن بمقاسات 44 22 8 أو 49 26 8. ووجد أن سمك الجدار يقدر بطول لبنية واحدة؛ أي لا يزيد على نصف متر[٤]. ورغم العثور على مثل هذه الأبنية وبقايا أبنية أخرى ذات جدران من الآجر الطيني في الطبقات القديمة بكل من أور وأريدو، فإن محدودية وجود تلك الهياكل العمرانية دفعت بعض المؤرخين إلى الاعتقاد بأن أقدم مزارعي عصر العبيد (دور أريدو) ظلوا يسكنون في أكواخ من القصب وبشكل واسع يوازي الزيادة المتنامية في السكان (بدليل وجود مقبرة واسعة كشف عنها بجوار التل الرئيس لقرية أريدو على مسافة 50م خارج السياج من جهة الجنوب الغربي، وقد ضمت على الأقل نحو ألف قبر كان المكتشف منها بحدود

١- اوتس. مصدر سابق ص 256.

٢- ذكر رونسيس الباحث الإنكليزي الذي سبق أن نقب في أريدو أن اسم مدينة أريدو هو نفسه الذي ذكر ذكر في العهد القديم (موسوعة المدينة ص 71)، وبذلك فإنها أول مدينة مقدسة ذكرتها الكتب السماوية بما حوته من مراكز لعبادة الإله وسكن لكهنة وطلاب الدين. ونورد اسمها في جدول إثبات الملوك السومرية، وكذلك الأساطير السومرية (كقصة الخليفة) التي أوضحت إنها كانت من المدن الرئيسة قبل الطوفان وأنها خلقت من قبل الإله بعد أن كانت "البقاع جميعها بحراً".

٣- سيتون لويد. مصدر سابق ص 38.

٤- موسوعة المدينة مصدر سابق ص 72.

(200) بهيئة صناديق مستطيلة من اللبن تنتمي إلى تلك المرحلة التي تعود إلى منتصف الألف الرابع تقريباً).

وفي الموسم الثالث من التنقيب في أريدو كشف البحث في الأقسام المجاورة للزقورة أيضاً على بقايا سكن من بيوت بشكل أكواخ مبنية من القصب والطين (اللبن). وفي الموسم نفسه شمل التنقيب تلاً كبيراً آخر على بعد 1كم من تل أبو شهرين، وكشف فيه عن بقايا قصرين واسعين متشابهين في التصميم والشكل، وهي تعود إلى العصور التأريخية، لذلك يمكن الجزم بأن عصور ما قبل التأريخ كان فيها لمنشآت القصب وجوداً أولياً في البناء جنباً إلى جنب مع استخدام الآجر الطيني. وظهر في أريدو منزل من الآجر الطيني، وله بناية ملحقة من القصب، لنستنتج بأن استعمال المنشآت القصبية لا يعني بالضرورة أن مستوطنة أريدو كانت واستمرت بدائية العمران حيث الأكواخ القصبية تعتبر وإلى يومنا هذا منازل ملائمة جداً للحالة الاجتماعية والاقتصادية والمناخية في جنوب العراق[1]. ولم يقتصر تأثير البعد المكاني على طبيعة الحالة العمرانية فحسب، فمن المؤكد أن له تأثيراً مباشراً في تكوين وطبيعة المجتمع العبيدي الأول واقتصاده.

فعلى الصعيد الاجتماعي: وإذا ما تجاوزنا هنا تفصيلات النقاش الذي لازال محتدماً حول أصل المجتمع الجنوبي بشكل عام وكيف أصبح المجتمع السومري امتداداً له، فقد أجمع معظم المؤرخين والآثاريين والمستشرقين بالذات على عدم معرفتهم المؤكدة للأصول الأولية للمجتمعات التي سكنت القسم الجنوبي من العراق، فلا يعرف بالضبط ما إذا كانت زيادة سكان المنطقة الشمالية قد دفعت البعض منهم بالتوجه جنوباً معبراً عنه بمجتمع المستوطنات التي استمر نزولها من الشمال نحو حوض حمرين ثم واصلت التقدم نحو مناطق السهل الجنوبي ليشكل سكانها السومريون الأوائل proto summerian، أو كما يصطلح عليه أحياناً بالفراتيين الأوائل، أم إنهم نزحوا من غير تلك الأماكن[2]. على الرغم من

١- اوتس. مصدر سابق ص 161.

٢- منهم من يصف تلك الأماكن على أنها الجنوب الغربي عند حافة الخليج الغربي المعروفة بواحة البريحي في الإمارات العربية في البحرين وما يجاورها. تلك المواقع التي كانت مواطن بعض الساميين الشرقيين ومنهم الغرب، حيث عثر على سبعة عشر موقعاً أثرياً يحمل خصائص قرى العبيد وآثار السكان من الصيادين وجامعي القوت الذين ربما تسللوا إلى جنوب العراق وكونو السكان الأوائل لقرى السهل الجنوبي، وهذا ما دفع بعض المؤرخين إلى اعتبار سكان أريدو سواء كانوا ملوكاً أو رعية هم ساميون وعايشوا السومريين لاحقاً. وعلى النقيض من ذلك هناك من يجعل الأماكن التي قدم منها أوائل مستوطني الجنوب العراقي على أنها الجنوب الغربي لهضبة عيلام.

الدراسات التي قام بها مشاهير علماء الأنثربولوجيا[1] تؤكد أن سكان العبيد وأريدو الذين يمثلون أول مستوطني السهل الجنوبي هم من أجناس البحر المتوسط الذين منهم سكان شمال العراق مستوطنو قرى العصر الحجري الحديث وما تلاه، ومنهم الساميون العرب كذلك الذين نزحوا وجاوروا السومريين لاحقاً. وفي كل الأحوال فإن وجود هذا المجتمع في القسم الجنوبي من العراق في منتصف الألف الخامس تحت الظروف البيئية والاقتصادية التي أمكن تشخيصها تجعل الحكم بأن طبيعة وشكل هذا المجتمع كان نتيجة لتأثير تلك العوامل التي جعلت منهم مجتمعاً مثابراً ومتعاوناً أهّلته ليكون مجتمع دويلات المدن لاحقاً. ولكن أبرز ما بلغت النظر عن هذا المجتمع الكيفية التي أدت فيها سلطة المعابد دوراً بارزاً في حياته.

فإلى جانب كونها مركزاً دينياً تقام فيه الطقوس الكهنوتية وشعائر الصلوات وتقديم القرابين، فقد كانت تلك المعابد مركزاً اقتصادياً فعالاً لتنظيم المعاملات الاقتصادية وشؤون المجتمع وطبقاته المقسمة وفق اعتبارات معينة.

وعلى الرغم من أن المعابد كانت تمثل توجهاً خطيراً وجديداً في مستوى المعتقدات الدينية المنظمة للحياة الاجتماعية والاقتصادية ومعالمها الظاهرية، إلا أن مظاهر أخرى كانت تسيطر على اعتقادات ذلك المجتمع، وربما كانت تصدر بوحي من تعليمات المعابد نفسها، فقد عثر على تجهيزات مع الأموات في قبورهم تشير إلى الاعتقاد بحياة ما بعد الموت، كذلك استمر عمل الدمى بهيئة الإنسان ولكن بنوعين: أحدهما برأس إنسان واضح، والثاني برأس مشوه ربما يشير إلى الاعتقاد بالأرواح الشريرة[2]. وهكذا فإن مثل هذه المعتقدات وغيرها التي أوجدتها أنواع الآلهة في هيكل الآلهة السومرية صارت ترسم مظاهر كثيرة للسلوك الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع السومري، إضافة إلى متطلبات الحياة الجدية والطموحة لذلك المجتمع.

أما اقتصاد مجتمع العبيد: فقد كان لطبيعة المجتمع الأولي في أريدو وللظروف والعوامل المكانية أيضاً الأثر في إعطاء الهوية الاقتصادية له. وهنا يقول الدكتور ساكز: "لابد أن مستوطني أريدو كانوا يؤلفون منذ البداية مجتمعاً زراعياً على الرغم من أن صيد الأسماك كان عنصراً أساسياً في اقتصادهم. ولابد

١- من بينهم عالم الأنثربولوجيا الدكتور كارلتون كون.
٢- ساكز. مصدر سابق ص 37.

أن الظروف المناخية قد أجبرت هؤلاء الوافدين للعمل على تصريف المياه وفتح القنوات والعمل في وسائل الري، وكانت النتيجة اقتصاداً زراعياً متقدماً جداً معتمداً على الري"[1].

ورغم عدم توافر معلومات مباشرة تتعلق بأولى خطوات اقتصاد العبيد الذي أصبح متيناً وغنياً في عهد السومريين، غير أن الطبيعة المكانية لبلاد العبيديين الأوائل (بلاد سومر لاحقاً) كان لها دور كبير في إثارة عناصر التحدي لدى سكان تلك الرقعة من بلاد ما بين النهرين تمثلت أولاً في مستوى انحدار الأرض من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرق، مما جعل معظم الأراضي الزراعية الواقعة شرق الفرات ذات مناسيب منخفضة عن مستوى النهر الذي كانت مواسم فيضانه وانخفاضه لا تتناسب مع طبيعة زراعة الحنطة والشعير حيث يفيض في موسم الربيع، مما كان يهدد المحاصيل الزراعية بالفرق، وكان يجب الحفاظ على المحاصيل. وكاستجابة لهذا التحدي عمد المزارعون إلى مباشرة الزراعة على الضفة العالية من النهر، وهي اليسرى أو الغربية، وتترك الفيضان غير المسيطر عليه في الاتجاه الآخر؛ إضافة إلى إقامة السدود وفتح قنوات التصريف في بعض المناطق. وبالعكس من ذلك نجده في موسم الجفاف؛ ولتلافي نقص الماء في الحقول الواسعة راحوا يفتحون القنوات لإيصال الماء إليها، وقد كشفت الآثار الأوائية والنصوص المسمارية أن هؤلاء السكان كانوا ذوي قدرة عالية على إقامة قنوات حقيقية للري وصلت أطوالها عدة كيلومترات وبعرض يتراوح بين (4-6)[2]. وقد واجهت عملية إنشائها مشكلة إقامة السدود في موسم الجفاف من أجل رفع مناسيب المياه إلى مستواها، ومشكلة تنظيفها سنوياً نتيجة الترسبات الغرينية التي كان يقذفها النهر بكميات كبيرة، مما يجعل تنظيفها شاقاً لكنه ضرورياً، مما أثار روح التعاون الجماعي لدى هذا المجتمع الذي أثر بالتأكيد في تطور بنائه الاجتماعي والاقتصادي. ولقد أدى نظام الري هذا إلى تباين في قيمة الأرض، وهو أمر بالغ الأهمية، حيث انعكس بدوره على تباين الثروة فالأرض القريبة من مصادر المياه مرغوبة والعكس صحيح، ونتج عن هذا ربط الناس من مساحات واسعة من الأرض عند ضفاف الأنهار بطريقة شجعت لمفهوم الملكية والتملك، وبالتالي زيادة حجم المستوطنات، حيث السيطرة على الأنهار والإفادة منها بشكل فعال يستوجب التعاون على نطاق واسع، وبالتالي حشد سكاني كبير ومستقر بشكل مستقرات بشرية فاعلة.

تلك الأماكن[3] صارت تزخر باقتصاد زراعي، إضافة إلى وجود المصادر الثمينة التي كانت موجودة على الأقل في أجزاء من السهل الرسوبي والتي تمثلت

١- المصدر السابق. ص 40.

٢- اوتس المصدر السابق. ص 257.

٣- اوتس المصدرالسابق. ص 251.

بأشجار النخيل التي صار استعمالها متعدد الأغراض ابتداء من ثمارها المستخدمة للطعام وصناعة المشروبات، وجذعها لبناء المعابد والبيوت وإقامة الجسور، واستخدامها وقوداً وفي صناعة الأثاث والزوارق المستعملة للصد في الأهوار، ومن سعفها يستفاد في بناء الأكواخ وحياكة السلال، ومن ليفها لعمل الحبال؛ كذلك كان القصب (البردي) النبات الطبيعي الذي غطى معظم أرض السهل الرسوبي مستعملاً الأغراض السابقة نفسها، ولا سيما للتسقيف وعمل الأكواخ إضافة إلى صناعة الحصران[1]. وإضافة إلى كل هذه الخواص فقد كانت التربة أهم الموارد الاقتصادية التي ساعدت ليس على إنجاح الزراعة فحسب، بل كانت مادة أولية جيدة ساعدت على صناعة مواد البناء بشكل آجر ولبن شيدت منه المعابد والمنشآت الأخرى، إضافة إلى صنع الآلات من سكاكين ومناجل ومسامير، بينما استمر استخدام الحجر في صناعة الأدوات وبعض الأواني التي كانت تستخدم لأغراض دينية في المعابد.

يمكن تلخيص خصائص عصر العبيد عبر أدواره الأربعة في نماذج أخرى من مستوطناته، ولكن تبقى مستوطنة أور أهم تلك المستوطنات التي عاصرت أريدو وحملت بعض الأدوار العبيدية والدور شبه الكتابي. وقد بلغت أوج نهجها في عصر فجر السلالات وكأنها جمعت من الدورين الأول والثاني[2] العناصر الحضارية والخصائص الفنية الرفيعة لتنفجر في عصر فجر السلالات عن حضارة راقية دلت عليها التنقيبات الأثرية الواسعة التي ترى في تلك المدن المقدسة الوارد ذكرها في الكتب السماوية كما ذكرت أريدو أيضاً.

عصر أوروك (3800–3500ق.م) وجذور الحضارة المدنية:

على الرغم من تلمس معالم الاستيطان الحضري المبكر في الطبقات المتأخرة من تنقيبات أوروك[3] (ذلك الاسم القديم الوارد ذكره في التوراة، والذي كان يطلق على

١- المصدر السابق ص 257.

٢- تقسم الأدوار الحضارية في أور (حسب تنقيبات وولى) إلى ثلاث أقسام: ضم عصر العبيد الأول والثاني والدور الحضاري الآخر يمثل المعاصر لجمدة نصر ثم الدور الثالث الموازي لعصر فجر السلالات.

٣- تقع أطلال مدينة الوركاء التأريخية على بعد 12كم شمال شرق الحضر في محافظة المثنى في منتصف الطريق بين بغداد والبصرة على بعد 30كم من مدينة السماوة. وكان المنقب والجيولوجي الإنكليزي لوفتس الذي نقب عام 1854 في أريدو هو نفسه الذي اكتشف قبل ذلك بقايا المخاريط الفسيفسائية الملونة التي تعود إلى معبدي أنا في الوركاء، وكان ذلك عام 1849 دون أن تكون لديه فكرة عن تأريخها، حيث بدأت التنقيبات الألمانية أعمالها للتنقيب في موقع الوركاء منذ عام 1912 برئاسة بوليوس يورد أن لولا أن العمل توقف بسبب أحداث الحرب العالمية الأولى وكان المنقب اندريه المساهم الفعال في تلك التنقيبات، ولم يكن ينشر ما عثر عليه من أعماله التنقيبية على الرغم من أن الوركاء مدينة كبيرة. وكانت الفترة المتأخرة (التأريخية) قريبة من سطح الموقع نتيجة عوامل التعريه، لذلك لم يعول على أعماله. حتى بدأت التنقيبات المنظمة عام 1928 لغاية قيام الحرب العالمية الثانية عام 1939 برئاسة الأستاذ

موقع الوركاء الحديث) عن طريق ما عثر فيها على معابد بنيت بطرز معمارية تميزها عن المعابد المبكرة لدور أوروك الأول المشابهة لمعابد أريدو من الأدوار العبيدية الأولى، وكذلك أنواع الفخاريات، والتي معظمها أوانٍ مطلية وغير ملونة مصنوعة من طينة حمراء أو رمادية تدل طريقة صناعتها وكثرة وجودها على أنها صنعت باستخدام الدولاب لأول مرة. ومثل تلك الفخاريات وجدت في مناطق واسعة من أقطار الشرق الأدنى المجاورة، مما يدل على نشوء صلات حميمة بين حضارات تلك البلدان وحضارة الوركاء. إلا أن هذا الدور المتأخر للوركاء (الذي يعد أولى بذرات نشوء المجتمع الحضري) لا يلغي جذور الوركاء وبداياتها التي تعود إلى نهاية عصر العبيد (3800ق.م)، على الرغم من الصعوبات المادية والمعلوماتية التي تشير إلى هذا الترابط الذي جعلها عصرين مختلفين في عطائهما الحضاري على الرغم من انتمائها إلى المكان نفسه (السهل الرسوبي لجنوب العراق في موقع وموضع الوركاء نفسها) وإلى امتدادات العصر المعدني نفسه (عصر العبيد)، مما يدل على أن النمو الثقافي المعقد الذي أدى إلى نشوء المدن في بلاد سومر كان عميق الجذور، ويعود إلى مستوطناتها الأولى، تلك التي تعرف باسم قرى عصر العبيد كأريدو وأور وكذلك نفرو العقير وقبلها الوركاء التي دلت خصائصها الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية، على أنها عاصرت أريدو في بعض أدوارها العبيدية التي كشفت عن وجود 18 طبقة دلت عليها التنقيبات الأثرية التي عدت نموذجاً عالياً للتنقيب العلمي في العراق، ليس لكفاءة العاملين فيه وحسب، إنما لأنه حدث في أهم المواقع الأثرية من جنوب العراق باعتباره كان مركزاً للحضارة السومرية الأولى.

ففي الطبقات (18-15) التي عثر فيها على فخاريات بشكل أدوات وآلات طينية صغيرة وملونة ومناجل مصنوعة من الطين المحفور، كانت توازي ما عثر عليه وولي في تنقيباته في أور وأريدو، وبالتالي فإن تلك الطبقات تمثل الأطوار الأولى من استيطان العبيديين في الوركاء الذين كانوا يعيشون في الأخصاص (صرائف البردي) عندما كانت أوروك مجرد قرية صغيرة تقع على البحر أو على هوز كبير، رغم العثور على مساكن ساذجة مشيدة بالطين وحصران القصب وجدت بقاياها في أعمق طبقات تلك القرية[1]. كذلك عرف استخدام الآجر في آخر تلك الفترة ولو على نطاق غير واسع[1].

والآثاري المعروف تولدكه الذي تنشر عام 1953 نتائج أعماله التنقيبية في سلسلة التقارير u. v. b uruk. Verlatifiger bericle وفي ذلك العام نفسه باشر الدكتور لنزن أبحاثه التنقيبية التي انتهت بوضع كل ما عرف عن الوركاء ورسم خارطة لها وللبيانات التي اكتشفت فيها. مجموعة مصادر سابقة ساكز. بصمجي. لويد.

١- بصمجي، د. فرج "الوركاء" دليل صادر عن مديرية الآثار العامة - مطبعة الرابطة بغداد العراق

أما الطبقات (14-6)، والتي أطلق عليها دور أوروك "الأول ويضمنها الوسيط"[٢]، فقد وجد أنها لا تشكل طبقات سكانية جديدة تماماً فوق الطبقات العبيدية السابقة، حيث ظهرت المعابد فيها على غرار معابد أريدو من حيث الطرز المعمارية، ومواد البناء المتمثل في استخدام اللبن المجفف بالشمس.

وعلى الرغم من العثور على فخاريات من عصر العبيد الثاني (فخاريات حاج محمد) في طبقات الوركاء تلك، والتي تشير إلى نوع من الصلة بين الحضارتين إلا أن فخاريات الوركاء تلك مثلت مجموعة متجانسة ومتميزة كونها ذات أشكال وأنواع بدأت أكبر نسبياً وقد صنعت معظمها على الدولاب دونما نقوش عدا قطع ذات طينة حمراء أو رمادية على خلفية بعض الآنية اللماعة أحياناً[٣].

إلا أن الحدث المهم من طبقات دور أوروك الأول الذي أقصى ملاحظته هو التطور التدريجي في بناء المعابد من حيث عظمة البناء وحجمه الذي أسبغ تلك المعابد بمميزات انفردت بها حضارة ما بين النهرين عن طريق ما عرفت به تلك المعابد من هيمنة بنائية جسدت مركزيتها، وعمارتها، وألوانها، ونقوشها عظمة إله المدينة، وقد اتضحت تلك الميزة بشكل جلي في الطبقة السادسة التي صور لنا معبدها الذي يعود تاريخه إلى منتصف الألف الرابع على أنه أول معبد يشيد لتقديس الآلهة (ن نبن سيدة السماء التي عرفت فيما بعد باسم عشتار) والذي توالى تواجده في الطبقات التالية وحتى العصور التأريخية المتأخرة نسبياً بحكم التجديدات المعمارية، والإضافات النوعية، والتي كان أخرها بناء الزقورة (التي شيدها عام 2050ق.م أورنمو مؤسس سلالة أور الثالثة عندما عمل على تجديد معبد (أي - أنا) تجديداً كلياً[٤]. وعلى درجة كبيرة من الشبه لمخطط هذا المعبد ولا سيما في الطبقات (2، 3، 4) حيث عثر على معبد انو (سيد السماء) في موقع غير بعيد عن معبد (أي - انا)، ويعرف مثل صوص وقد عرف بالمعبد الأبيض لوجود طلاء من الحصى الأبيض في ظاهره[٥]، وسنأتي إلى وصفه لاحقاً ضمن فترة الوركاء كمدينة سومرية طلائعية. وإذا كنا سنتجاوز هنا تخطيط هذه المعابد وغيرها مما ظهر في العصور اللاحقة لدور الوركاء وتصاميمها المعمارية، فإن الذي يهمنا هنا هو موقع تلك المعابد في مستوطنة أوروك التي كان يحكمها الأداء الوظيفي لتلك الفعاليات، حيث يرى بعض علماء الآثار والمؤرخين أن الوركاء نفسها لم تكن لتنمو

1960 ص 6.

١- ساكز - مصدر سابق ص 41.

٢- إذا دأب بعض المؤرخين والآثارين على جعل أدوار أوروك ثلاث - الأول يمثل الطبقات 12-8 والوسط يمثل 8-6 والأخير يمثل الطبقات 5-4.

٣- ساكز المصدر السابق ص 41 وموسوعة العراق في التاريخ ص 61.

٤- بصمة جي مصدر سابق ص 9.

٥- المصدر نفسه ص 10.

في شكلها الذي عرفت به كمدينة إلا بوجود مستوطنتين هما (كوللايا واي - انا) تمركزت كل منها حول معبد يعود إلى أواخر عصر العبيد. ويبدو أن (أي - انا) تطورت بأسلوب حصل نحو 3500ق.م فنالت على مجمع فريد من الأبنية الطقوسية التي استمرت تتوسع نتيجة تعظيم وتضخيم هياكلها العمرانية، حتى اندمجت مع موقع كوللايا ليكون وحدة واحدة عرفت بالمنطقة المركزية، واحتلت قلب المدينة التي أحاط بها سور المدينة (بناه ملكها الخامس جلجامش) منذ بداية الألف الثالث ق.م[1] ويبلغ طوله نحو 6 أميال (ما يعادل 9.5كم)، ويوجد بداخله ساحة المدنية البالغة 3.5 ميل مربع (ما يعادل 7كم) وكما تعكسها الخارطة رقم (2). حيث استحوذت منطقة المعابد والأبنية العامة على ثلث تلك المساحة[2].

خارطة 2: لمدينة أوروك

أما الدور التالي لأوروك الذي يبدأ بالطبقات 5-4 (نحو 3200ق.م) والذي يوازي الطبقات (5-1) في أريدو، والطبقات ما قبل الطوفان في أور فهو ذلك الدور الذي يسمى بالشبه كتابي أو عصر فجر الحضارة الذي أمدتنا التنقيبات في طبقاته

١- اوتس - مصدر سابق ص 240.

٢- يقدر سيتون لويد مساحة أوروك نحو 200 ايكر "لابكر 4840 يارد مربعة " ثلثها مخصص للمعابد والأبنية العامة (ص 59 من أثار بلاد الرافدين).

ولا سيما ط (4 أ، ب، ج) بمعلومات وافية عن الجذور الحقيقية لنشأة المدن الأولى في العراق عن طريق ما عثر فيها على معالم حضارية تمثلت في معابد تلك المستوطنة وزقوراتها، وما حوته من آلاف الرقم الطينية التي تشير إلى اختراع الكتابة وبدء استعمالها للتدوين على الرقم الطينية التي أصبحت تعكس الملاحم الأسطورية، وأخرى للأغراض العلمية والتجارية، كما أصبحت الألواح المنقوشة، والتماثيل البديعة، والآنية المصنوعة من الحجر المزخرف، والفخاريات المتميزة جميعها جنباً إلى جنب هي السبيل لمعرفة حضارة السومريين باعتبار أن أوروك كانت مركزاً للحضارة السومرية الأولى. ولذلك سنحاول التماس تلك المظاهر التي بدت واضحة في الدور شبه الكتابي لنتبين ارتباطها بالخصائص المحلية والموقعية التي ظهرت في مواقع قليلة من بلاد ما بين النهرين في جزئها الجنوبي، أحدها الوركاء التي شكلت مع نظيراتها من المستوطنات (أور أريدو العقير) بحكم ما شوهد من تطورات بداية لنشأة نماذج حضرية متجانسة وظيفياً ومن هذه المظاهر:

1- ابتكار المصاطب التي صارت تشيد عليها المعابد فقد وجد أن معبد (ط 5) قد شيد على أساس وضع قطع من الحجارة فوق مصطبة من الطين المضغوط pise[1]، كما إن المعابد[2] الست في دور أوروك المتأخر كانت قد بنيت على منصة ترتفع 50 قدماً فوق السهل المحيط. وإذا ما تجاوزنا هنا معبد (أي - انا) في طبقة 6، فإن أهم المعابد التي اكتشفها المنقبون (تعود لهذا الدور) واستطاعوا رسم مخطط لها بعد أن وجدها بصورة كاملة، وهو معبد (ط 4) حيث كانت جدرانه واضحة، وقد كسيت واجهاتها بالفسيفساء المتكون من مسامير فخارية بطول إصبع اليد ذات ألوان زاهية مبالغ في شدتها (إذ تم التقاط عشرات منها تناثرت على الأرض)، وهنا يقول جورج رو "كل ما نحتاجه هو بذل الجهد لمعرفة كيفية تطور تلك الواجهة الفسيفسائية المطعمة بالمخاريط تحت ضوء شمس الشرق[3].

١- ساكز. مصدر سابق ص 42.

٢- يقصد بتلك المعابد الأزواج الثلاث أي - انا التي وجدت في الطبقات 6 و 5 و 4 التي أثار وجودها المزدوج لكي يعتقد الدكتور لنتز بأنه لم تكن لعبادة أي - انا فحسب بل لزوجها إله الخصب الرموزي (جورج رو ص 111).

٣- جورج رو. مصدر سابق ص 111.

كذلك في المعبد الأبيض وجدت المنصة وفي قمتها بقايا المحراب. ولا تنفرد أوروك بهذا المبتكر فقط، حيث وجد في مستوطنات عصرها ذلك المعبد الذي وجد في تل العقير (50 ميلاً جنوب بغداد) والذي يعود تاريخه إلى عصر أوروك، والذي يمكن عن طريقه تحسس الذوق الرفيع في البناء وانتقاء الألوان. وقد عثرت عليه بعثة مديرية الآثار عام 1940-1941 وكان مبنياً على منصة طابوقية خفيفة صارت بمرور الأيام أعلى مما يجاورها. أما المعبد فقد بدا كتلة وردية وسط المستوطنة نظراً لمادة بنائه وألوانه لذا سمي بالمعبد الأحمر.

2- وفي عصر أوروك وعلى الرغم من اختراع الدولاب الخزفي لصنع الفخار وعلى نطاق واسع إلا أن تلك الفخاريات لم يوجد بينها ما يثير الانتباه سوى بعض القطع السوداء الملمعة جداً، وبعض الأواني المحمرة، أما بقية الفخاريات فهي إما أن تكون غير ملونة أو رمادية اللون، وهنا يصفها جورج رو "بأنها تتصف بالكآبة. حيث أصبحت الأكواب ذات المقابض والجرار ذات الصنابير المنقوشة وكأنها نسج لقوالب معدنية تفتقد إلى الرشاقة والجمال إلا ما ندر... " وربما كان توفر الأواني الفضية والبرونزية، والاهتمام بجودة صناعتها. أو اختراع عجلة الفخار هما السببان المسؤولان عن ضمور فن صناعة الفخار الذي كان مزدهراً يوماً ما"[1]. وارتقى فن النحت في دور أوروك الأخير إلى أسمى معانيه عندما زينت واجهات المعابد والمباني الأخرى بالنقوش الفنية النفيسة من مقاطع الحجارة، وهذا ما دلت عليه المنحوتات الأثرية المكتشفة.

3- وفي ذلك العصر استبدلت الأختام المنبسطة التي سبق معرفتها في القسم الشمالي بالأختام الأسطوانية[2]، حيث صنعت النماذج المبكرة منها بمهارة عالية، إذ جرى تصميمها وتزويقها بالنماذج المختلفة من الحيوانات، والنباتات، ومشاهد الحياة اليومية بذكاء ودراية كبيرين. ويعد اختراع الأختام الأسطوانية حدثاً تاريخياً مهما لدور أوروك الأخير ليس لقيمتها العلمية أو الفنية فحسب، وإنما لأهميتها التأريخية لكونها المادة الوحيدة العائدة لهذا الدور التي يظهر فيها البشر، فتعكس لنا التجمعات صور عن مهنهم الحقيقية[3]. فالختم الأسطواني الذي يصور

١- رو - المصدر السابق - ص 111.

٢- للمزيد من المعلومات عن الأختام تراجع أطروحة الماجستير غير المنشورة لريا محسن عبد الرزاق الموسوعة "كتابة على الأختام الأسطوانية غير المنشورة في المتحف العراقي) المقدمة لقسم الآثار كلية الآداب جامعة بغداد 1987.

٣- جورج رو. مصدر سابق. ص 112.

مجزرة السجناء على سبيل المثال يوحي بالحرب، كما يعبر تواتر ظهور الماشية في هذه الأختام الأسطوانية وعن سيرها بهيئة قطعان. وغيرها من الأختام الأسطوانية التي صورت مظاهر الكهنة والمعابد الكهنوتية. وهكذا أصبحت الأختام جنباً إلى جنب مع الفن الخشبي المعقد والجميل مصادر مهمة للمعلومات التي كشفت عن معالم الثورة الحضارية التي شهدتها أرض وادي الرافدين في عصر فجر الحضارة.

4- وتبقى أهم الاختراعات لفترة أوروك الأخيرة والتي تفوق في أهميتها بناء مصاطب المعابد أو تزيينها بالفسيفساء أو اختراع دولاب الفخار أو الأختام الأسطوانية وفن النحت المرادف لها، ذلك الاختراع الذي فتح عهداً حضارياً جديداً لا تقل أهميته عن أهمية الزراعة في العصر الحجري الحديث (الثورة البشرية الأولى) ذلك هو (فن الكتابة) "ففي معابد (أي - انا) لدور أوروك الثاني، وقبيل نهاية هذه الفترة ظهرت الكتابة لأول مرة في التاريخ على شكل رقم من الكتابة الصورية"[1] والتي كانت في غاية التعقيد، ويمكن اعتبارها أولى محاولات الإنسان في حفظ أفكاره. كما سنرى ذلك الاختراع وتطوره كأحد الشخوص المهمة في الحضارة السومرية.

وهكذا شكلت هذه الاختراعات وغيرها من التي حدثت في القسم الجنوبي من العراق عبر السنوات الخمسمئة الأخيرة، والتي تلت دور الوركاء الأول، سلسلة كبيرة من الاستجابات التي صار كل منها يشكل مفصلاً أو معلماً حضارياً أمام موجة كبيرة من التحديات التي فرضتها بيئة ذلك الجزء من أرض الرافدين. والتي لا يمكن تصورها بشكل مطلق على أنها مجرد أرض رسوبية قريبة من الأنهار ومصادر المياه، مما يجعلها كثيرة الزراعة والعطاء على الرغم من أن مثل هذا الأمر قد حدث فعلاً، ولكن التنظيم الاجتماعي الضخم احتاج إلى سلطة تخطيطية وتنسيقية مهيمنة تقوم بالإشراف على إنتاج وتركيز الثروة، فظهرت سلطة المعابد، تلك السلطة التي أصبحت مركزاً لتنظيم كامل النشاطات الاقتصادية والاجتماعية ومظاهرها العمرانية. وتلك السلطة هي التي أصبح يعيش عليها ومن أجلها الكهنة بمراتبهم المختلفة، ومن يخدمهم، وعاملين بإمرتهم من معماريين وبنائين ونجارين ونحاتين وكساري حجر وأصحاب حوانيت وحراس..، وغيرهم، حيث نتج عنها نمط من التنظيم الاجتماعي غير الريفي، ذلك النمط الذي يعيش في مراكز استيطانية لم تعد قروية زراعية بل مراكز حضرية (مدن) يسمى تنظيمها الاجتماعي بالتنظيم المديني، والذي كانت بداياته بعد دوري أوروك الأولى ضمن ما نسميها بفترة مدن الطلائع.

١- نشرت هذه الكتابات من قبل kenestein في archaishe texeans uruk leipizing عن رو ص 112.

الدور شبه الكتابي (3500-3000ق.م) فجر الحضارة «بداية فترة المدن الطلائعية»:

تعد فترة الاكتشافات الأثرية التي عثر عليها في الموقع الذي عرف بجمدة نصر[1]، وما يقابلها من مكتشفات أثرية في طبقات الوركاء (3-2) الحد التأريخي الفاصل بين عصور ما قبل التاريخ والعصور الكتابية (التأريخية). لذلك راح عدد من المستشرقين والمؤرخين وعلماء الآثار يمدونها بدلاً من 3500-3000ق.م لتصل حتى عام 2800ق.م ولتضم بداية عصر فجر السلالات[2]. تأكيداً على أن هذه الفترة قد بدأت في نهاية عصر أوروك (ط 5-4) واستمرت تشهد المميزات الحضارية نفسها التي وجدت في دور أوروك المتأخر (ط 3-2) وفي موقع جمدة نصر، ولذلك تم اعتبارها (دور) وليس حضارة وأسموه (بالدور شبه الكتابي) لعدم بروز اختلافات أساسية في جوهر العناصر الحضارية بينها وبين دور أوروك المتأخر، على الرغم من بعض الاختلافات البسيطة في الشكل والنوعية التي ظهرت في البقايا الأثرية لهذه الفترة، والتي تمثلت بفخاريات متميزة (أصبحت تعرف بفخاريات جمدة نصر) تألف أغلبها من جرار كبيرة وسميكة، ومنقوشة بتصاميم هندسية، وطبيعية ملونة بالأسود والأحمر أو باللون الأحمر فقط المضاف مباشرة إلى الفخار الأصفر الذي لم يكتشف إلا في مواقع أخرى قليلة جداً. ولا يمكن اعتبارها دليلاً كافياً على وجود حضارة قائمة بحد ذاتها. وإنما صار هذا الفخار ونظراً لخصوصيته ومحليته دور حضاري سبق العهود التأريخية مباشرة أطلق عليه اسم (دور جمدة نصر أو الدور شبه الكتابي)[3] تميز بحصول تغييرات مفاجئة في بعض خصائص العناصر الحضارية تمثلت في:

1- الاهتمام بتصميم المنصات التي كانت تقام عليها المعابد، إضافة إلى الاهتمام بتصميم وتزين المعابد نفسها. فقد ظهر في معبد (أي - انا) في الطبقة الثالثة في الوركاء أن فناء المعبد الذي سبقه كان قد تمت تسويته مرة أخرى، وأنشأت فوقه سلسلة من الأبنية ذات صفة مغايرة تماماً لاحتوائها على منصة عالية، وربما بني معبد فوقها[4]. ومع استمرار استخدام نقوش المخاريط الفسيفسائية التي وجدت لأول مرة على معبد (أي - انا) في الوركاء (طبقة 6) إلا إنها أصبحت هذه المرة تثبت على ألواح وتلصق بالجدران بدلاً من إكساء الجدران بأكملها.

١- اكتشفت أثار هذا الموضع من قبل أستاذ علم الآشوريات بجامعة اكسفور. د. لانكرون عام 1925.
٢- سليمان. د. عامر "محاضرات في التأريخ القديم" موسوعة دار الكتب للطباعة والنشر جامعة الموصل. العراق 1978 ص 63.
٣- جورج رو. مصدر سابق. ص 116.
٤- اوتس. مصدر سابق. ص 284.

2- ومن الأمور المهمة التي أصبحت تعكس نتاجاً حضارياً واضحاً أصيلاً بدأ فعلاً في (دور جمدة نصر) هو معرفة العراقيين لصهر المعادن. ومن أهمها النحاس الذي عرف سابقاً، والذي كان يستخدم فقط في صنع آلات الزينة، أما في عصر جمدة نصر فقد أصبح يذاب ويجعل بأحجام مختلفة بوساطة القوالب المفتوحة أولاً ثم القوالب المغلقة، حيث عرف منها عمليات صب التماثيل في عصر فجر السلالات. وقد وردت وثائق سومرية توضح عمليات السباكة بالشمع المذاب[١]، وقد شجعت معرفة طريقة الصهر على خلق السبائك المعدنية الصلبة التي صارت تستخدم في صنع الأسلحة والآلات والأدوات المعدنية، وكان من أهم هذه السبائك البرونزية تلك التي تصنع من صهر النحاس والقصدير بطريقة الشمع المفقود.

3- ومن الفنون الأخرى التي عرفت لأول مرة في هذا الدور هو فن النحت الذي أصبح يصور لاحقاً المسلسلات والملاحم البطولية بعد أن كان في البداية مقتصراً على الأواني الحجرية، والطاسات، والألواح الجدارية، والتماثيل الصغيرة التي كان العباد يقدمونها لأربابهم إيفاء للنذور، وذلك التقليد الذي أصبح يتكرر كثيراً في بداية عصر السومريين[٢]. أما المسلسلات فظهرت لأول مرة في الوركاء في معبد (أي - انا) الطبقة الثالثة التي تعود إلى عصر جمدة نصر، حيث عثر على مسلسلة نحتت من حجر البازلت (80-75سم) بصورة بدائية، وهي تصور رجلين ملتحيين يصرعان أسداً بالرمح[٣]، ثم منحوتات لأسود تهاجم ثيران وغيرها. وإذا كانت هذه المنحوتات لا تمثل قيمة فنية جمالية متميزة فيكفي دور جمدة نصر ودور الوركاء المتأخر القيمة الفنية والجمالية التي حوتها المزهرية السومرية المنحوتة بطول 3 قدم لتصور الآلهة (إنانا) وهي تقبل هدايا من رجل رفيع المكانة ربما كان كاهناً أو حاكماً. وكذلك المنحوتة التي تعتبر من أنفس القطع الأثرية والتي تصور رأس امرأة بالحجم الطبيعي، وقد صنع الحاجبان والعينان من الرخام الأبيض المطعم بالعقيق والصدف واللازورد، وهي من أنفس القطع الأثرية، ونموذج لرقي النحت السومري في ذلك الدور[٤].

4- وفي هذا الدور تظهر الكتابة بشكل متزايد للتعبير عن مختلف الظواهر الحياتية التي صارت لها أسماء معينة، ولكن رموزها أصبحت أقل عدداً وأكثر واقعية لأنها استخدمت لقيمتها الصوتية فقط[٥].

١- موسوعة المدينة. مصدر سابق. ج 1 ص 31.
٢- جورج رو. مصدر سابق ص 116.
٣- صارت هذه المنحوتة أصولاً تأريخية لمشاهد الصيد عند الآشوريين.
٤- بصمة جي. مصدر سابق ص 17.
٥- تطور استخدام الكتابة من الرمزية إلى الصوتية.

5- أما الأختام الأسطوانية فهي تحمل المشاهد الدينية والحياتية نفسها المدونة سابقاً ولكنها باتت أكثر تقليدية وكلاسيكية[1].

إنَّ هذه المنجزات وغيرها من معالم البناء العمراني والاقتصادي والاجتماعي، والإنجازات الفنية الكبيرة من نحت، وصناعة معدنية وخزفية، وصناعات زراعية مرافقة لصناعة المحراث الزراعي (الذي صارت له قيمة دينية ودنيوية على الرغم من معرفته سابقاً)، وما شهدته مستوطنات القسم الجنوبي من العراق في عصر فجر الحضارة من فنون ومعارف وعلوم أخرى،(شكلت الجذور الأصلية لمقومات قيام المدن الحضارية) وحملت معظم العناصر التخطيطية المعاصرة التي تبحث فيها هذه الرسالة عن طريق المعالم التي عرفت أو مازال البحث قائماً لمعرفتها. ويبقى هناك أمر غريب يجب أن لا يفوتنا هنا، وهو أن القسم الشمالي من العراق ومنطقة وادي دجلة لم يكونا سوى منطقة مقفلة في وجه التقدم الكبير المتحقق في الجنوب، حيث بقي سكان تيه كورا مثلاً يحاربون بالصولجان والمقالع الحجرية، ويستخدمون الأختام المنبسطة، ولم يعرفوا الكتابة، وكانوا يصنعون الفخار باليد زعم معرفتهم للعربة ذات العجلات الأربع[2]، وفي نينوى التي أعقبت حضارة تيه كورا عرفوا صناعة الفخار الجميل بالعجلة الدجوارة (دولاب الخزف)، ولم يعرفوا صناعة الأسلحة، ولا الكتابة، ولا الأختام الأسطوانية إلا في العهد الذي كانت سومر قد ولجت فيه في العصور التأريخية. وهكذا صارت الفجوة الحضارية واسعة بين الشمال والجنوب، ولم يجر تجاوزها إلا بعد مجيئ الآشوريين وحكمهم للعراق بأجمعه. إن المميزات الحضارية التي شهدها القسم الجنوبي من العراق أثرت وفي فترات قصيرة لاحقة في حضارة كثير من الأصقاع مثل عيلام جنوب غرب إيران، حيث اعتبرت النصوص الكتابية (التي لم يحل رمزها للآن) التي عثر عليها هناك قد أخذت في الأصل من نمط الكتابة السومرية القديمة. وكذلك في مصر عثر على قبور في نفاذة لما قبل التأريخية تضم الأختام الأسطوانية من النوع الذي استخدم في زمن شبه الكتابية من العراق[3]. كذلك استفاد المصريون من فن النحت العراقي فزينوا مقابرهم بواجهات ذات فجوات معمارية كالتي عرفت في جدران المعابد العراقية، وصار تقليداً معمارياً فيها. كذلك سبقت رموز الكتابة السومرية الخط الهيروغليفي الذي استوحى حروفه من الرموز السومرية نفسها. وقد وجد نوع من الصلات الحضارية بين تلك المراكز الحضارية.

يجعل الشرق مع إعطاء السبق الحضاري للعراق كل تلك المنجزات وغيرها فصولاً مختلفة من جوانب حضارة ناضجة ولدت، وانتعشت في جنوب العراق،

١- جورو رو. مصدر سابق. ص 116.

٢- جورج رو. مصدر سابق. ص 116.

٣- رغم عدم استخدامهم لها لعدم معرفتهم الرقم الطينية إذ كانت تستخدم ولقرون طويلة بشكل تمائم (رو. ص 117).

وشعت على الشرق الأدنى برمته، وأثرت تـأثيراً عميقاً في الحضـارات الأخرى. تلك هي الحضارة السومرية.

العناصر الوظيفية وأثرها في شكل وتركيب قرى القسم الجنوبي من العراق

تخطيط القرية العراقية في السهل الجنوبي:

لم تكن قرى القسم الجنوبي من العراق عبر مسيرتها منذ نشأتها وحتى تحولها إلى مدن لتغيير كثيراً في عناصرها الوظيفية عن القرى العراقية القديمة لولا ذلك الحشد الهائل في التغييرات التي شهدتها نهاية الألف الرابع، والتي ظهرت بوادرها في دور أوروك الأخير، واستمر عطاؤها في الدور الشبه كتابي (يدل على أصالة تلك العناصر)، باعتبارها تمثل الحوائج الفعلية القادرة على تلبية متطلبات الحياة اليومية للسكان من جهة، ولأنها تمثل المعطيات الحضارية التي أفرزتها مسيرة الصراع الطويل بين الإنسان العراقي وبيئته بكل جوانبها الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية من جهة أخرى، مما جعلها تطور أفكار هذا الإنسان، ومستوى تفاعله في تلك البيئة المحلية والإقليمية. ولذلك فقد بدأت تلك العناصر التخطيطية نفسها تعكس شكل وتركيب القرية الجنوبية، وقدرتها على أداء مهماتها الوظيفية كمستقرات بشرية إضافية إلى تلك العناصر التي عبرت عن حالة النضج، والتطور التي شهدها القسم الجنوبي عبر مسيرته الحضارية، والتي عكست في جوانبها الأفكار التخطيطية التي تبنتها القرية أثناء مراحلها التطويرية. لذا بدا هيكل المخطط العام للقرية الجنوبية يتألف من العناصر التخطيطية الآتية:

1- المنطقة المركزية: (منطقة المعبد) "center place "place of temples وهو ذلك الجزء من القرية الذي احتلته الأبنية الدينية ممثلة بالمعبد وباقي الأماكن المقدسة الملحقة بالمعبد، والتي صارت جزءً مركزياً ليس لوقوعها في وسط القرية فحسب كما في أوروك وأريدو والوركاء (شكل 23) بل لأنها ذلك المركز الذي ينظم الحياة الروحية والاجتماعية والاقتصادية للقرية عن طريق التعليمات الدينية والدنيوية الصادرة عنها. لذلك صار كل شيء معلق بما يصدر عنها.

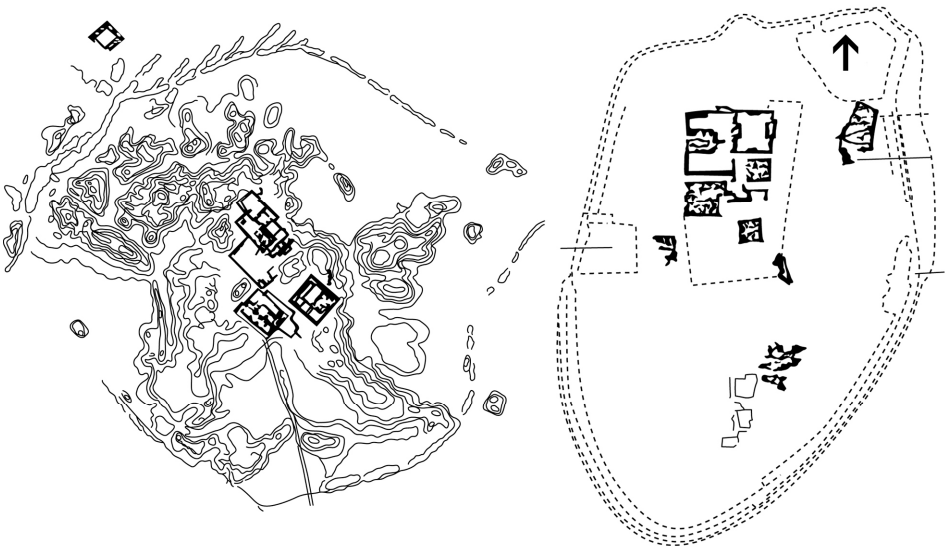

شكل 23: المنطقة المركزية المنعزلة عن باقي أجزاء المدينة في أور- الوركاء

2- المنطقة السكنية: وهي تلك المنطقة التي احتضنت الوظيفة السكنية التي بقيت القرية تؤديها وبشكل رئيس عبر كافة مراحلها وأدوارها وإن كانت القرية الجنوبية قد بدأت بذلك النمو من السكن المتمثل بالأخصاص والصرائف المصنوعة من قصب البردي، واستمر وجوده لمدة طويلة حتى عُرِفَ اللبن والأجر المحفور الذي سار معه جنباً إلى جنب وعلى فترات متأخرة من عصر أوروك، وإنَّ ذلك لا يلغي وجود الوحدة السكنية المبنية من مواد البناء التقليدية التي عرفتها قرى الجنوب كأور وأريدو والوركاء، وعبرت عنها بقاياها الأثرية في صفاتها السكنية، والتي برزت بشكل واضح في دور الوركاء الأخير والدور الشبه كتابي لتلك القرى. والتي يظهر أن توزيعها أخذ الشكل العفوي بالنسبة لمركزية المعابد، والشكل المتجمع حول مساحات وسطية[1]. وفي الأدوار الأخيرة ظهر تأثير شبكة الطرق واضحاً في انتشار المناطق السكنية وتوزيعها.

3- شبكات الطرق: من المؤكد أن وجود قرية مثل الوركاء والتي تبلغ مساحتها نحو 7كم، وكذلك أور الممتدة طولياً لما يزيد عن 1000م لا بد أن تشمل مثل تلك القرى بمساحتها الواسعة نسبياً على أنماط من الطرق التي تربط بين

١- مثل تلك الأشكال ظهرت في بيت كورا "انظر الشكل 26 أ".

أجـزاء المنـاطق السـكنية والمنـاطق الأخـرى كالمعبـد والمينـاء وبـاقي منـاطق الفعاليات (طرق فرعية ورئيسة) وربما توزعت عليها تلك الفعاليات نفسها.

4- مناطق الساحات: وهـي تلـك الفضـاءات التـي وجدت عند المعابد بشكل رئيس، كالتي أقيمت حول معبد تيه كورا شكل (24)، والتـي وجدت بين المنـاطق السكنية أو عند المرافئ وكانت تشبه الأسواق، وكان يتم فيها التبادل التجاري بين القرى وصارت لاحقاً أسواقاً لتبادل المنتجات بين القرى (التي تحولت إلى مدن) وبين ظهيرها الزراعي.

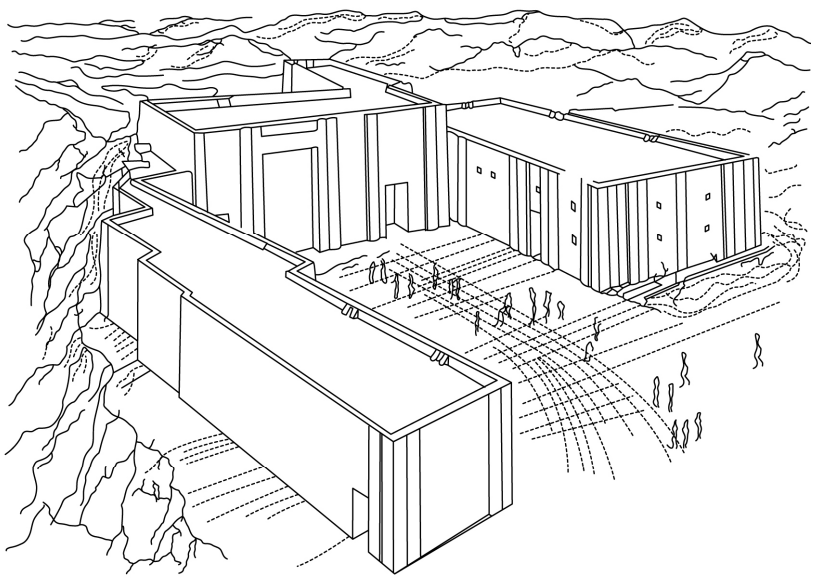

شـــكل 24: مناطق الساحات الوسطية عند المعابد من تبة كورا - الطبقة الثالثة عشرة (لويد 1972)

5- منطقة المخـازن: وهـي تلـك المنـاطق التـي بـرزت بشكل واضـح عند المعابد وفي الأجنحة المخصصة لحفظ ما يقدم للإلـه من نصيب ونذور. وكذلك مخازنها الواسعة التي كان يحفظ فيها عوائد المعبد من الأراضـي الزراعيـة التـي كان يسيطر عليها. ومن المؤكد أن مثل تلك المخـازن كـان لهـا وجـود عند منطقة الميناء، وكانت مخصصة لحفظ الفائض الزراعي المعد للتصدير إلى القرى وإلـى البلدان التي عرفت باسم قرى الجنوب المتاجرة معها. وكانت أور نفسها مركزاً لتجمـع المـواد الغذائيـة والمنسـوجات والمصـنوعات التـي تزيـد عـن حاجـة قـرى الجنوب وتذهب للمقايضة مع تلك البلدان البعيدة.

6- ومن العناصر التخطيطية التي عرفها مخطط القرية العام، وكانت تؤدي وظائف مهمة هي:

أ- الأسوار. ب- الميناء.

وإذا كنا هنا لا يمكننا الإشارة إليها بشكل واضح، فلأن هذه المناطق لم تكن لتعرفها معظم قرى الجنوب إلا عندما تحولت إلى مدن، وصار وجودها الميزة الفعالة للتفريق بين المدينة والقرية، حيث أصبح الاستعمالين الأكثر بروزاً في الفترة التي تحولت فيها قرية أور والوركاء إلى مدن تاريخية مشهورة في عصر فجر السلالات كما سنرى.

تحليل البيئة الوظيفية للقرية العراقية الجنوبية (الفكر التخطيطي لعناصر البناء الوظيفي)

تشير العناصر التخطيطية التي مر ذكرها في وصف وتركيب المخطط العام لقرى القسم الجنوبي من العراق إلى أنها بلغت مستوى عال من النضج، والتطور المستخلص من ذلك الصراع الطويل الذي قاده إنسان العراق القديم في مواجهة البيئة القاسية تارة والرحيمة تارة أخرى حسب مواقع الاستيطان التي كان يشدها، ويشكل فيها قراه في ذلك القسم من وادي الرافدين. وقد ظهر مقدار هذا النضج التخطيطي في تلك القرى في الأفكار التخطيطية التي رافقت مسيرة القرية والتي وردت معظم جذورها في قرى الشمال، والمنحدرة عنها جنوباً. التي إذا ما تتبعناها ضمن عناصر ترتيب مخططات تلك القرى نجدها تمثل بناءً وظيفياً (بيئة وظيفية) يحقق الخصائص التالية:

أولاً: كفاءة اختيار مواقع القرى: وهو الأمر الذي تنبه إليه الإنسان القديم يوم اختار مواقع قراه لتكون في مواضع آمنة، حيث اتخذها عند مواقع محصنة ذات محميات آمنة، وقريبة من قصبات الأنهار والينابيع، حيث تتوفر المياه التي هي المصدر الأساسي لحياة الكائنات الحية. مما يعني أن العراقيين القدماء قد برعوا في اختيار مواقع قراهم، وقد وضعوا لذلك مجموعة من الأسس والمبادئ التي استندوا

إليها، والتي جاءت نتاج للتجربة الطويلة والعميقة التي مرت بها حياة القرية عبر مراحل تطورها، وكانت خلاصة ذلك أن أدركوا الأهمية الكبيرة لوقوع القرى على الأنهار أو على مجرى مائي. وأصبح هذا المعيار الآن هو من أهم المبادئ أو العناصر التخطيطية في اختيار موقع المدينة. ووقعت المستوطنات البشرية في الجنوب العراقي على النهر أو عند مجرى مائي كبير، حيث كان الماء هو الصفة الأساسية لموضع قرى ومدن العراق القديم[1]. فهذه أور ("ur "m) وأريدو كانتا تقعان بالقرب من البحر أو الخليج أو ربما كانتا تتصلان به بواسطة منخفض مائي كبير، إضافة إلى مرور نهر الفرات بهما وكذلك أوروك. ويأتي في طليعة الأسباب الموضوعة لذلك هو أن حضارة العراق من الحضارات الزراعية التي ارتبطت اقتصادياً بالزراعة والمياه، وكما رأينا فإن أولى الخطوات الاقتصادية في عصر العبيد كانت الزراعة المعتمدة على مياه الأنهار والصيد فيها. وإنَّ الأرض والماء يمثلان عندهم عناصر البقاء والاستمرار (ومن هنا جرى تقديسهما وعبادتهما عن طريق الآلهة المعبرة عنهما). كذلك لعب وقوع القرى على الأنهار دوراً أساسياً ومهماً في الوظيفة الدفاعية، حيث كان وقوع معظم القرى الجنوبية غرب نهر الفرات يشكل حماية لها من خطر فيضاناته التي تتجه نحو الضفة الشرقية وفي الوقت نفسه كان النهر يشكل عائقاً أمام هجمات الأقوام الشرقية، إضافة إلى الدور الذي لعبته هذه الأنهار بممارسة النشاط التجاري والذي كان أحد عوامل قيام المدن ونشوء الحياة المدنية.

ثانياً: توجه الأبنية ومراعاة الخصائص البيئية: لقد أثر جريان النهرين الخالدين دجلة والفرات بشكل كبير في حياة سكان بلاد الرافدين، وفي توجه شكل القرى التي اتخذت مواقعها قريباً من ضفافهما. فإذا كان هذان النهران يخترقان العراق من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي فهذا هو السبب الذي اتخذت من أجله القرى شكلاً موازياً لاتجاه جريانهما كما هو الحال في أور والوركاء (انظر شكل 25)، حيث تنحدر جميع العوامل الجوية والطبوغرافية بهذا الاتجاه، وأولهما الرياح الشمالية الغربية.

١- باقر، طه - مصدر سابق ص 328.

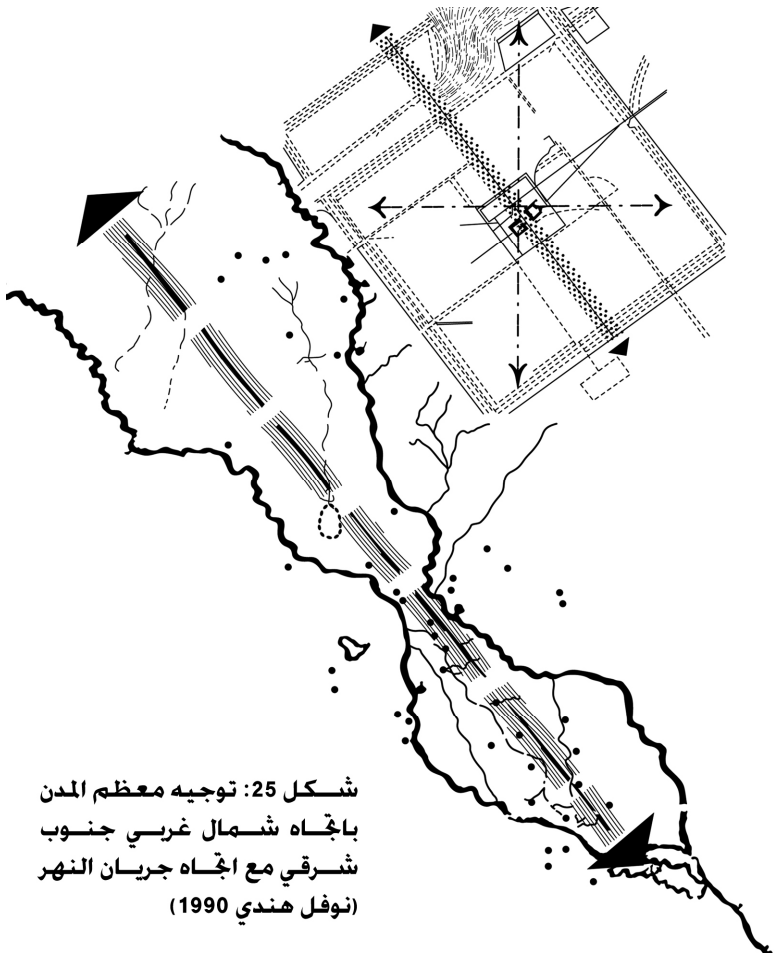

شـــكل 25: توجيه معظم المدن باتجـــاه شـــمال غربـــي جنـــوب شـــرقي مع اتجـــاه جريـــان النهر (نوفل هندي 1990)

وأخـذت الأبنيـة مـن تلـك القـرى توجـه زوايـا هياكلهـا العمرانيـة نحـو الاتجاهـات الرئيسـة الأربعـة لجعل جبهتهـا فـي اتجـاه الريـاح الشـمالية الغربيـة السائدة من جهة، ولتتعرض جميع واجهات المباني لأشعة الشمس بشكل متساوٍ من جهة أخرى، حيث إن هذا الوضع يجعل أكثر من نصف واجهات الأبنية فـي حالة تعرض إلى الشمس، (انظر شكل(26) إضافة إلى القيمة الرمزيـة أو الدينيـة التي كانـت تتبعهـا[1] الأبنيـة الأخـرى باتجـاه أركـان المعبـد الذي صـارت زواياه تأخذ الاتجاهـات الأربعـة لإعطـاء الهيمنـة الوجوديـة لإلـه المعبـد علـى اتجاهـات الكون الأربعة. وسواء كان توجه الأبنية لأسباب اعتقاديـة أو مناخيـة، فقد أدرك

١- هندي، نوفل مصدر سابق ص 28.

إنسان العراق القديم أن اتصال قراه وأبنيتها بهذا الشكل يضمن له بيئة نفسية وصحية لذا كان هذا الوضع رئيساً ويمثل حالة معظم القرى ومنها تلك التي صارت مدناً مثل أور وأريدو والوركاء.

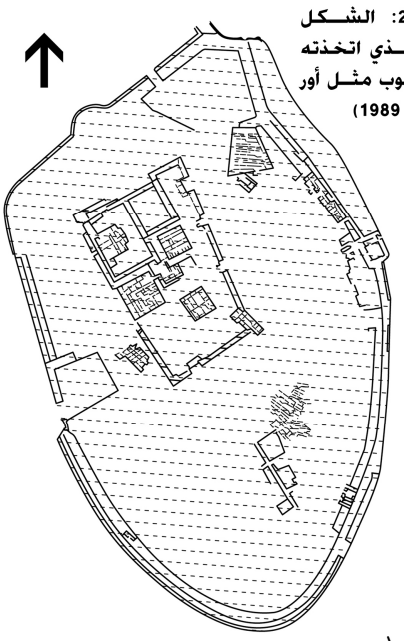

شكل 27: الشكل الدائري الذي اتخذته قرى الجنوب مثل أور (وعد راضي 1989)

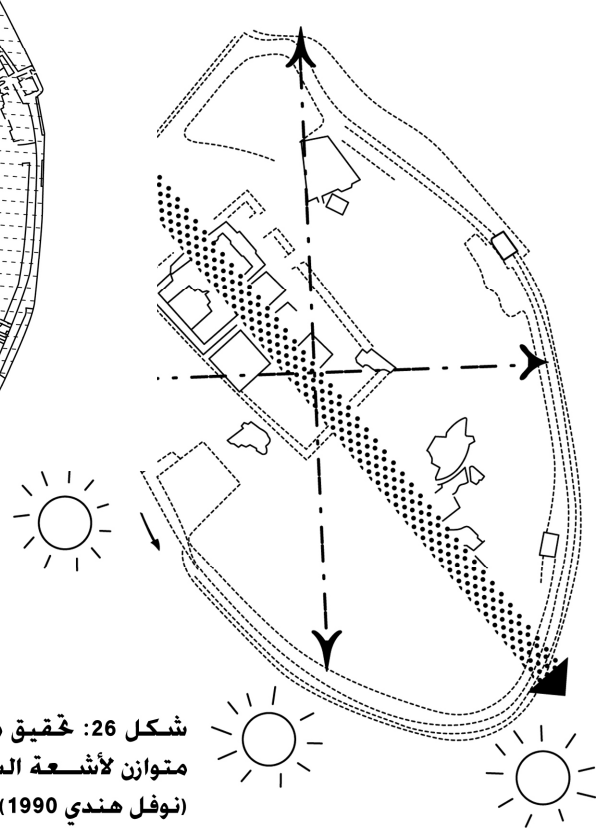

شكل 26: تحقيق مستوى متوازن لأشعة الشمس (نوفل هندي 1990)

ثالثاً: تحقيق شكل القرية: رغم أن شكل القرية جاء متأثراً بأنماط التجمعات السكنية، وأشكال انتشارها التي تعددت أنواعها عبر مراحلها التطورية، والتي تعد بمجموعتها أشكالاً تجريبية إلا أن الإنسان حاول عن طريقها صياغة الشكل الأمثل الذي يلبي طموحه ويحقق غايته في العيش ببيئة توفر له الحماية والخصوصية، لذلك فإن شكل القرية العراقية في الجنوب هو من أنضج الأشكال التي تحقق له هذا الجانب، وتعكس الخصائص الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية

في مجتمع القرية. وهكذا نجد اختفاء الشكل غير المنتظم للقرية العراقية في الجنوب، في الوقت الذي انعدم فيه التنظيم في الشمال، وهو تعبير عن ضعف بنائها الاقتصادي وضعف تماسكها الاجتماعي، في حين أخذت معظم قرى الجنوب الشكل الدائري، (squear) شكل 27 وشبه الدائري كتعبير عن التآلف الاجتماعي والاقتصادي للبيئة الجنوبية، حيث فرضت على سكان المستوطنات تنظيف الأرض، وتهيئتها للزراعة، وتأمين حمايتها من خطر الفيضانات عن طريق إقامة السدود، وحفر الترع والقنوات لإيصال المياه إليها، ثم إدارتها ورعاية محاصيلها ومستلزمات جني المحاصيل، وتوزيعها وفق تعليمات المعبد الذي صار يمثل مركز ذلك الشكل موضعاً وسلطة، مما يحقق جوانب الهيمنة المطلقة على شؤون القرية.

إضافة إلى ذلك أدرك سكان تلك القرى كفاءة الشكل الدائري في تحقيق إمكانية السيطرة على الاتجاهات كافة، الأمر الذي يؤمن حماية المستوطنة، لا سيما أن الأسوار لم تكن تعرف في المراحل الأولى، لذلك أخذت قرية تيه كورا الشمالية الشكل الدائري. كما في الشكل رقم 28 بعد أن سارت قرى عصرها الجنوبية كأور والوركاء على هذا المبدأ (شكل 29) هذا الشكل الذي مهد للقرى لتكون مدناً ذات أسوار دائرية أمنت لها السيادة لتكون دولة مدنية وسلالة حاكمة.

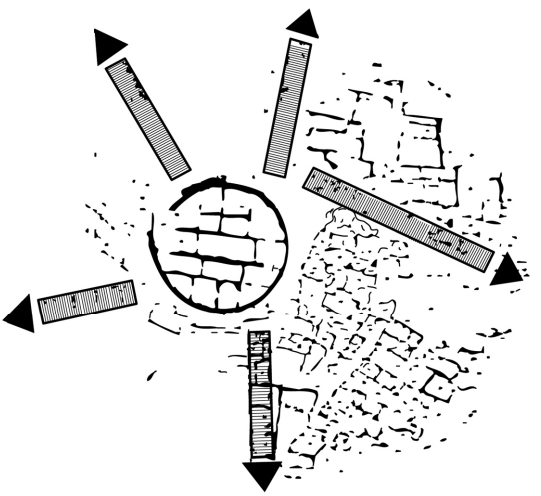

شكل 28: تبة كورا الطبقة الحادية عشرة البيت الدائري والتجمع العضوي الشعاعي للوحدات السكنية (تويلر عن هندي 1990)

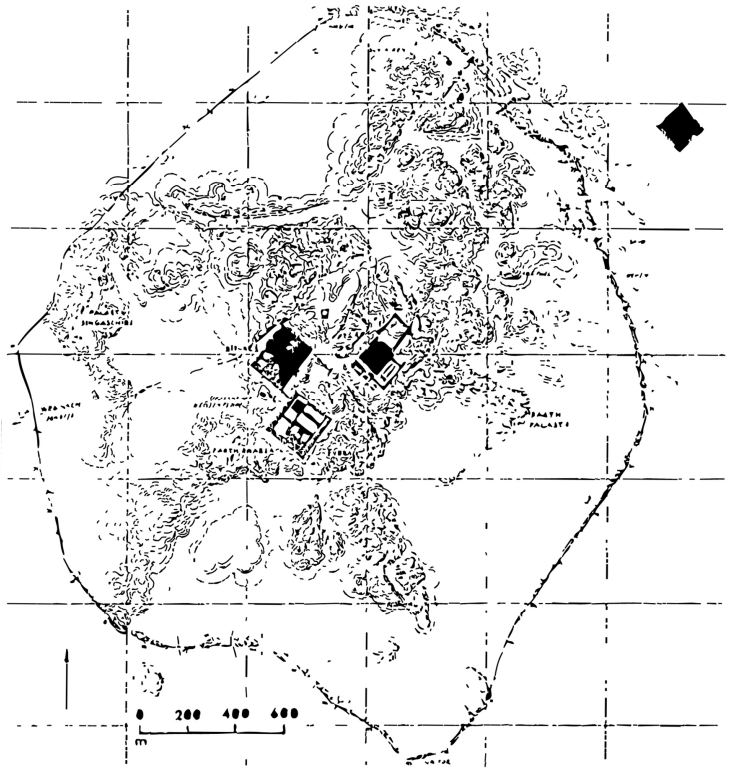

شكل 29: الوركاء (أوروك)

رابعاً: تحقيق الحماية للقرية: لم تقتصر مخاوف الإنسان القديم على نفسه وأفراد عائلته، ومجتمع مستوطنته من تهديدات الحيوانات المفترسة، وقساوة البيئة المناخية وعناصرها الطبيعية من أمطار ورياح عاصفة ومياه فيضانات جارفة فحسب، بل صار قلقه يتزايد في الجنوب يوماً بعد يوم من أبناء جنسه. حيث إن التهديدات الخارجية من الأقوام المحيطة به والطامعة بما ينتجه أبناء مستوطنته أصبحت واضحة له، لذلك فكر إنسان تلك القرى بالوسيلة الدفاعية ليحمي نفسه وعائلته. فنتج عن ذلك تكيف بنية الوحدات السكنية لتؤدي هذا الغرض، ففكر في الشكل والموقع الذي يؤمن له حماية طبيعة للمستوطنة وتكاتفها الاجتماعي، فكان وقوعها عند الأنهار خير تأمين لها من جهة الشرق، كما كانت أشكالها الدائرية تتيح المجال للتآلف الاجتماعي والتحسب لأي طارئ. قد هيأ هذا الشكل السبيل لنشوء الخنادق والأسوار، والمداخل المنكسرة التي أصبحت في مرحل لاحقة عنصراً أساسياً في تخطيط القرى والمدن العراقية تحقيقاً لحماية القرية أو المدينة.

وبهذا الشكل الوظيفي لعناصر تركيب القرية يكون إنسان وادي الرافدين قد أوجد نظاماً بنيوياً لقراه، واستطاع أن يقود مجتمعاتها بدرجة عالية من التنظيم الداخلي والخارجي، ويجعلها بيئة أكثر رصانة في تكوينها الجوهري وعناصرها

الوظيفية، وبنائها الحضاري الأمر الذي أهلها لتكون مراكز حضرية، ولتقود طلائع الثورة الحضرية في العالم بعد أن بزغ نورها في القسم الجنوبي من بلاد الرافدين في الأرض المسماة ببلاد سومر.